المطبوعات البيداغوجية لكلية الآداب والحضـــارة الإسلاميـــة (2)

مـحاضرات في أدب العصر العبـاسي

مطبوعة موجهة لطلاب السنة الثانية(ل. م. د)

السداسي الثالث دراسات أدبية – السداسي الرابع لغة ودراسات قرآنية

الدكتورة سكينة قدور

أستاذة محاضرة بكلية الآداب والحضارة الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية– قسنطينة

السنة الجامعية : 2012/2013م

تصدير

أ.د إسماعيل سامعي

عميد كلية الآداب و الحضارة الإسلامية

كم أكون سعيدا عندما يصدر عمل علمي يضاف إلى رصيد المكتبة الوطنية العربية الإسلامية في بلادي، وأكون أسعد عندما يأتي هذا العمل في سياق تطوير البحث العلمي وتحسين الأداء التربوي " البيداغوجي " في جامعتنا خاصة وأنه يدخل في إطار تجسيد مخطط تطوير كلية الآداب والحضارة الإسلامية .

هذا العمل الموسوم "محاضرات في الأدب العباسي" للدكتورة سكينة قدور المحترمة أستاذة الأدب في قسم اللغة العربية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية يعد الحلقة الثانية من سلسلة المطبوعات البيداغوجية للكلية الموجهة لطلبة ليسانس نظام جديد (ل م د)، وثمرة جهد علمي استجابت فيه الباحثة لأهم الشروط التي وضعت من طرف لجنة وضع المعايير والشروط لإعداد مطبوعات بيداغوجية موجهة للطلبة لغرض فحص كل مطبوعة تقدم من طرف الأساتذة لطلبتهم، ونالت استحسان وموافقة لجنة التحكيم أو الخبرة التي كونت لذلك.

ونحن اذ نشكر الأستاذة الباحثة على جهدها وتثمينه بنشره ندعو كافة الأساتذة الباحثين في الكلية إلى بذل مثل هذا الجهد، وتقديم أعمال مماثلة من شأنها الإسهام في تكوين طلبتنا ،واثراء البحث العلمي في جامعتنا، و الرفع من مستوى الأداء التربوي في كليتنا خصوصا ،وجامعتنا عموما .

والله ولي التوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله حمدا كثيرا يليق بجلال قدره وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلقه وخاتم أنبيائه، وعلى آله وصحبه ومن والاهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه مجموعة محاضرات في أدب العصر العباسي، قدمتها لطلاب قسم اللغة العربية والدراسات القرآنية بجامعة الأمير عبد القادر (ليسانس كلاسيكي) وأقدمها حاليا – بعد إضافات وتعديلات– لطلاب القسم نفسه مرحلة الليسانس (ل.م.د).

تناولت فيها حركة الأدب العربي في العصر العباسي، الممتد على ما يربو عن خمسة قرون وربع القرن، وهي مرحلة زمنية طويلة، وهي فوق هذا عامرة بالنشاط الأدبي والنقدي والإبداعي، بحيث تصعب الإحاطة بكل جوانبها الأدبية وخصوصياتها الفنية، فهو عصر الإبداع والتجديد والتميز في كل مجالات المعرفة الإنسانية، دينية وعلمية وتاريخية وفلسفية... عرفت فيه الحضارة العربية الإسلامية أزهى مراحلها وأكثرها رقيا وازدهارا، وعد بحق العصر الذهبي للعالم الإسلامي كله.

وقد واكب هذه النهضة الشاملة نشاط أدبي متنوع ساير ظروف المجتمع العباسي، الإجتماعية والسياسية والثقافية، وتجاوبت مع كل بيئاته، وشاركت كل طبقاته انشغالاتها وهمومها، وكانت مرآة عاكسة للعصر، معبرة عن مظاهر الحياة فيه، ملفتة إلى كل دقائقها وتفاصيلها، حتى لنخال أدباءها، كتابا وشعراء آلات تصوير لاقطة تنقل أدق مشاهده، ولا تكتفي برسم المشهد وإنما تبدي الموقف النقدي من كل ماتقع عليه.

ونظرا لامتداد الفضاء الزماني والجغرافي والإبداعي لهذه المرحلة الهامة في تاريخ الأدب العربي، فقد حاولت في هذه المحاضرات الإلمام بالمشهد العام للحركة الأدبية التي عرفت قفزة نوعية وتنافسا جميلا بين الشعراء أنفسهم، وبينهم وبين كتاب العصر، وكان لذلك كله أثره في إثراء النص الأدبي العباسي شكلا ومضمونا. وركزت على أهم مظاهر التجديد فيه، وعلى أهم قضاياه الفنية والفكرية، وأنا بصدد إعداد قراءة تطبيقية لأشهر نصوصه الأدبية وأهمها، تكمل هذه الدراسة النظرية العامة.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بجزيل الشكر إلى الهيئات الإدارية للجامعة، الداعمة لنشر هذه الجهود تحفيزا لنا على المضي والمزيد من البذل والاجتهاد، وعلى رأسهم فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الله بوخلخال رئيس الجامعة، والأستاذ الدكتور إسماعيل سامعي عميد كلية الآداب والحضارة الإسلامية.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

د. سكينة قدور

مقدمة تاريخية [1] :

1 - ينظر : - ابن الأثير- الكامل في التاريخ ، دار الكتب العلمية- بيروت (تنظر سنوات الخلافة العباسية (132-656هـ)

تمكن بنو العباس عام 132هـ من بسط نفوذهم على رقعة الخلافة الأموية شرقا وغربا، وحوّلوا العاصمة السياسية من دمشق إلى الكوفة ثم إلى بغداد التي بناها أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس، وظلت حاضرة الإسلام الأولى إلى أن سقطت في يد التتار سنة 656 هـ. ونظرا للظروف المتباينة التي عرفها العصر العباسي فقد قسمه المؤرخون إلى مرحلتين حتى يتمكن الدارس من حصرها وملاحظة أحداثها.

أ – **العصر العباسي الأول** (132-334هـ) :

تميزت الفترة الأولى من هذا العصر بقوة الخلافة ومجد الدولة، فقد ثبتت قواعد الدولة على يدي أبي جعفر المنصور، وامتد نفوذها في أيام المهدي، وتألقت حضارتها وعظمت هيبتها أيام هارون الرشيد والمأمون، أما المعتصم فتوالت في عهده الانتصارات العسكرية واستمر ذلك إلى عصر الواثق والمتوكل. وفي ظل هؤلاء الخلفاء غلب نفوذ العنصر الفارسي، وإن بقي الرأي الأعلى والكلمة النافذة للخليفة العباسي، وربما أوجس الخليفة خيفة من معاونيه فبطش بهم، مثلما فعل السفاح بأبي مسلم الخرساني، والرشيد بالبرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل، وهذا لا يعني ضعف شوكتهم، فقد ظل منصب الوزارة وقفا عليهم، وجعلوا قصور الخلفاء أشبه بقصور الأكاسرة، كما نسقوا الدواوين ووضعوا أساليب الحرب ونظم الحكم، فنحن نجد ديوان البريد (يراقب تصرف الولاة في الأقاليم الكبرى)، وديوان التوقيع (ويقوم بالنظر في مظالم الناس وشكاواهم)، وديوان الضياع (ويتولى النظر في ضياع الخلفاء وأملاكهم)، وديوان الخاص (وينظر في حسابات الخاصة والخدم) وديوان الضرب (ويتولى ضرب النقود)، وديوان الجيش ... ، وديوان بيت المال ، وغيرها من الدواوين الأخرى كديوان الخبر (مركز الإعلام الرئيسي) [1].

وإن امتاز عصر المعتصم بالقوة فإن من جاء بعده من الخلفاء ولاسيما المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز ومن بعدهم امتازوا بالضعف، وذلك لنفوذ العنصر التركي في هذه الفترة الثانية من العصر العباسي الأول، وكانت بداية العنصر التركي بالمعتصم الذي كون منهم فرقة عسكرية كبيرة (حوالي 70 ألف) ضاقت بها بغداد وعرفت صراعات بينهم وبين العنصر الفارسي، واضطر المعتصم إلى بناء "سامراء" على

– شوقي ضيف – تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأوّل والثاني، ج3، ج4، تنظر المقدمة التاريخية).

1 – ينظر : الاصطخري – المسالك والممالك– دت – دط – مكتبة المصطفى الإلكترونية، ففيه نتاج خبرة القائمين على ديوان الخبر الذين قدموا علما ومعرفة غزيرة ودقيقة عن سائر الأمصار الإسلامية.

شاطئ دجلة وجعلها حاضرة ملكه عام 221هـ، ثم تطاول الأتراك وأخذوا يعتدون على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء ويتعرضون للناس بالنهب والاعتداء والتقتيل، فأصبح الخليفة بعد المتوكل أشبه بأسير في أيدي أولئك الغلمان، وفي ذلك يقول أحد الشعراء ممثلا:

خليفة في قفص   بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له   كما تقول الببغا[1].

واجترأ الأتراك على قتل الخلفاء وسمل أعينهم وعزلهم وتعذيبهم وسجنهم، فقتلوا المتوكل وخلعوا المستعين وعذبوا المعتز وقتلوا المهتدي، حتى قال أحد شعراء هذا العصر [2]:

خلع الخليفة أحمد بن محمد   وسيقتل التالي له أو يُخلَعُ

ويزول ملك بني أبيه ولا يُرى   أحدٌ بملك منهم يستمتع

إيها بني العباس إن سبيلكم   في قتل أعبدكم سبيل مهيع.

وبسبب ما أصاب الدولة من ضعف ظهرت في أطراف الخلافة أسر سياسة مناوئة، كانت إرهاصا للدويلات المستقلة التي ازدهرت في العصر العباسي الثاني، ففي عهد المعتز ظهرت الدولة الصفارية، وفي خلافة المهتدي خرج الزنج، واستقل بنو حمدان بالموصل في خلافة المعتضد، وقامت الدولة العلوية(الفاطمية) بإفريقية في خلافة المقتدر، وبرز بنو بويه في بلاد فارس في خلافة القاهر ...

أما إذا جئنا إلى الحياة الاجتماعية[3] فقد كانت تابعة للحياة الاقتصادية المضطربة حيث انتشر نظام إقطاع الأراضي مكافأة أو هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء، وكثرت ثروات الخلفاء ومن والاهم من وزراء وأمراء، وتنافسوا في الترف، وبدا فرق كبير بين طبقة الخاصة والعامة، ومن مظاهر ذلك الثراء الفاحش للقلة كثرة الرقيق وكثرة نَسل الجواري، واختلط المجتمع بأجناس شتى (عرب – فرس –أتراك – نبط – روم – هنود – بربر – زنج ...)، فكان من نتائج كل ذلك تفشي الانحلال الخلقي وظهور العادات المخالفة لعادات المجتمع العربي الإسلامي.

---

1 – ينظر : مروج الذهب – 61/4.

2 – النويري – نهاية الأرب – دار الكتب المصرية – القاهرة . نسبت الأبيات في نهاية الأرب لبعض الشعراء في خلع المستعين وبعدها: رقعتم دنياكم فتمزقت   بكم الحياة تمزقاً لا يرقع

3 – ينظر : شوقي ضيف – تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول – 44-74.

ولضيق أبواب الرزق على الكثير اتخذ بعضهم السؤال حرفة يقتات منها، وقد صوّر أبو العتاهية حياة الفقر تصويرا دقيقا، من ذلك وصفه للغلاء وحال الفقراء إذ يقول [1]:

من مبلغ عني الإما م نصائحا متواليه
إني أرى الأسعار أسـ عار الرعية غاليه
وأرى غموم الدهر را ئحة تمر وغاديه
وأرى اليتامى والأرا مل في البيوت الخاليه
من بين راج لم يزل يسمو إليك وراجيه

أما الحياة الفكرية والثقافية[2] فتبعا لتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة، وفقراء وأغنياء، ونساك ولاهين مجان، كانت البلاد معرضا للنحل، حيث تتصارع فيها تيارات متناقضة ودعوات سرية كثيرة قادتها مجموعة أظهرت الإسلام وأبطنت غيره وراحت تلصق به ما ليس فيه من خرافات. وكان أن نشط لكف أضاليلها جماعة من علماء المسلمين تميز الصحيح من الفاسد، وفي تلك الأثناء ظهر التدوين والتأليف. وكما تعددت المذاهب المعادية للإسلام، تعددت الاتجاهات الإسلامية، فكان السني والخارجي والشيعي وظهرت فرق كثيرة: معتزلة ومرجئة وقدرية، قامت بينها مناظرات كثيرة لاسيما بين المعتزلة والسنة أثمرت بظهور أبي الحسن الأشعري الذي حاول التوفيق بين المنقول والمعقول وجمع أهل السنة على رأي صحيح.

وهكذا عاش الناس في امتزاج بين مختلف الأجناس وصراع بين المذاهب والآراء، بين العرب والعجم، بين الزندقة والإيمان، بين الفقر والغنى، بين الجدّ واللهو، وكان لذاك كلّه صداه في أدباء وشعراء ذلك العصر. ولعل كتابات الجاحظ أكبر نموذج لذلك.

أما الحياة الفكرية فقد عرفت ازدهارا كبيرا، وتلاقت في الحواضر الإسلامية ثقافات الشعوب التي دخلت الإسلام، وراح الخلفاء يشجعون الحركة العلمية ويرعونها ويبالغون في إكرام العلماء والأدباء وتقريبهم إليهم، وأصبح العلم والأدب أداة

---

1 – شكري فيصل- أبو العتاهية أشعاره و أخباره- مطبعة جامعة دمشق- 1364هـ 1965- الديوان- ص 439- 440.

2 – ينظر : شوقي ضيف – تاريخ الأدب العربي – العصر العباسى الأول – 89-137.

المناصب العالية والجاه والنفوذ، ويتنافس العظماء في تكريم النبغاء وإنشاء دور العلم وتمويل حركة الترجمة إلى العربية، وإن كانت الثقافة العربية هي الذائعة ! وقوامها علوم الدين واللغة والأدب، فإن الثقافة الفارسية أوجدت لنفسها مكانا إلى جانبها نظرا لنفوذ العنصر الفارسي، كما دخلت الثقافة اليونانية على الفكر الإسلامي باختلاط العرب باليونان وبخاصة في الشام، حيث راح الخلفاء يشجعون على ترجمة كتب الطب والفلسفة والنجوم، وكان على رأسهم المنصور ثم الرشيد منشئ بيت الحكمة الذي نقلت إليه الكتب عن البلاد المفتوحة، وتلاه المأمون الذي أوفد الرسل إلى الروم لجلب علومهم وعين سهل بن هارون مشرفا على بيت الحكمة التي امتلأت بالكتب المهداة من ملك الروم وجزيرة قبرص. كما اتصلت الثقافة الهندية بالفكر العربي، وقد تفاعلت هذه الثقافات في العاصمة بغداد، وكان لها صداها لاسيما في طبقة المتكلمين.

وتعددت مراكز الحياة العقلية في هذا العصر، فنشطت الدراسات الدينية في مصر، وتفوقت الشام في الشعر والآداب، وكان للعراق الصدارة في الفلسفة والعلم واللغة، وأصبحت بغداد والبصرة من أهم مراكز البحث العلمي، واشتهرت بلخ وأصفهان بالثقافة. فقد كان العصر حافلا بالعلوم وبالفلاسفة والمفكرين والشعراء والعلماء والكتاب، وصارت العلوم المترجمة شرطا في تكوين ثقافة الكاتب والأديب، حتى رأينا ابن قتيبة في مقدمة أدب الكاتب يثور على حال عصره حيث أقبل الناس على المنطق والفلسفة وأهملوا علوم الدين[1].

وفي العصر العباسي الأول نبغ عدد من أعلام العصر، في التشريع نذكر منهم على سبيل المثال (مالك 179هـ- الشافعي 204هـ - أحمد بن حنبل 240هـ ...) وفي العلم (الواقدى 207هـ - الزهرى 230هـ - ابن السماك 173هـ)، وفي التصوف (إبراهيم بن أدهم 162هـ- صالح المري واعظ البصرة 172هـ - رابعة العدوية 190هـ - ذو النون المصرى 245هـ ...)، وفي علوم اللغة والأدب نجد (المفضل الضبى 178 — الخليل بن أحمد 100 هـ - سيبويه 188هـ - الأصمعي 216هـ - ابن الأعرابي 150 هـ .. ابن السكيت 244هـ - المبرد 285 ..)، وفي علم الكلام برز المعتزلة (وعلى رأسهم

1 - ابن قتيبة — أدب الكاتب - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1408هـ-1988م، ص 10-11.

بشر بن المعتمر 210هـ النظام 223هـ – ابن أبي دؤاد 240 هـ – الجاحظ 255هـ)، وفي الفلسفة نجد (الكندي 252هـ – وحنين بن إسحاق 260هـ ثابت بن قرة 288 ...) وغير هؤلاء كثير.

ب- **العصر العباسي الثاني** (334- 656هـ) [1] :

في هذه المرحلة تفاقم خطر الاستعانة بالجند الأتراك، وعظم بلاؤه، فضعف الخلفاء في أواخر العصر الأوّل شجع الأمراء على الاستقلال بما في أيديهم من أقاليم، إذ رأوا أنهم ليسوا بأقل شأنا من قواد الأتراك الذين يتلاعبون بالخلافة في بغداد، وجدير بهم عصيان ما يصدر عن أولئك الأتراك من أوامر باسم الخليفة المستضعف. يأتي البويهيون في مقدمة الأمراء الداعين إلى الاستقلال، فقد استقلوا أوّل الأمر بإقليم فارس والجبل وظلوا يوسعون نفوذهم حتى تمكنوا من بغداد عام 334هـ في خلافة المستكفى بالله، فساموا الناس والخلفاء والأتراك سوء العذاب ... وبعد فترة أخذ نفوذ الترك في الظهور من جديد، وبدأت دويلات إسلامية في الظهور كالدولة الإخشيدية بمصر والشام (323–358)، والدولة الحمدانية بحلب (317–394هـ)، واستقل الفاطميون بالمغرب والأمويون بالأندلس ... وفي ظل تلك الثورات والاضطرابات تمكن السلاجقة الأتراك من القضاء على البويهيين عام 447هـ واسترداد الملك، بتولي طغرلبك على بغداد، وقد ساسوا الخلافة بالشدة والبطش، وكان على الخلافة في عهدهم : القائم — الظاهر — المستظهر — المسترشد — الراشد — المقتضى — المستنجد — المستضيء – الناصر — الظاهر — المستنصر — والمستعصم. وفي أيامهم قامت دويلات جديدة كالأيوبية في مصر والشام، والغورية والأتابكة والأذربيجانية وغيرها. وفي أواخر أيامهم عرفت الخلافة فتورا ووهنا انتهى بزحف التتار على بغداد بقيادة هولاكو، واستيلائهم عليها عام 656هـ، وكان ذلك إيذانا بسقوط الخلافة العباسية.

1 – ينظر : – الطبري– تاريخ الرسل والملوك– تحقيق محمد أبو الفضل أبراهيم– دار المعارف –مصر– ط2 – (تنظر الفترة الزمنية المحددة أعلاه – ج 11)

– ابن الأثير – الكامل في التاريخ – دار الكتب العلمية– بيروت–(تنظر الفترة الزمنية المحددة أعلاه – الأجزاء 7 ،8 ، 9 ، 10 .)

– شوقي ضيف – تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الثاني – دار المعارف – د.ت – ص 9-137.

فبعد أن كانت الخلافة في قبضة الخليفة الذي يحكم العالم الإسلامي في بغداد تفرق السلطان إلى دويلات وممالك، لكل دولة رئيسها ونظامها وجيوشها وعاصمتها ... وتوزع الحكم واضطربت أمور العالم الإسلامي تبعا لتلك السياسات المتخاصمة المتنافرة في غالب الأحيان وكان ذلك سببا في وهن المسلمين وضعفهم واستسلامهم للتتار دون مقاومة تذكر.

وقد كان لهذه الانقسامات السياسية انعكاساتها على الأدب، حيث نشأت مواطن جديدة للأدب والشعر هي في الغالب عواصم تلك الدويلات[1] التي زاحمت بغداد وحملت رسالة الثقافة، من ذلك حلب (مدينة الحمدانيين)، جذبت إليها الأدباء والشعراء والعلماء والفلاسفة، فوجدنا بها ابن نباته وأبا فراس والمتنبي والسري الرفاء والفارابي، ووجدنا بالري" شيراز وجرجان وأصفهان " وهي مدن بويهية ابن العميد والصاحب بن عباد، وكذلك كان شأن كل حواضر الدويلات الإسلامية، وكان الأمراء يتنافسون (عربا وعجما) في الإغداق على العلماء والأدباء، وعلى البذل في خدمة العلم، ولذلك أزدهر الأدب العربي في ظل ضعف العرب وضياع سيادتهم، فابن سينا مثلا نشأ في دولة السامانيين ببخارى، والبيروني في ظل الغزنويين، وابن مسكويه صحب ابن العميد وخدم بني بويه، وابن فارس أهدى كتابه "الصاحبي في فقه اللغة" للصاحب بن عباد، وابن البيطار الذي كان في خدمة الملك الكامل الأيوبي، ومن المدن التي نافست العاصمة المركزية بغداد وزاحمتها في ذلك النشاط العلمي و الفكري والأدبي (القاهرة – القيروان – قرطبة –إشبيلية – حلب – دمشق – خوارزم – نيسابور – بخارى وغزنة وغيرها ...).

مدخل إلى الحياة الأدبية في العصر العباسي:

أ – الحياة الأدبية في العصر العباسي الأول[2] :

---

1 – وفيها نتج ما يعرف بالآداب الإقليمية (ينظر : حامد حفني داود – الآداب الإقليمية في العصر العباسي الثاني – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر– ط2 - 1981م.

2 – ينظر : شوقي ضيف " تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول والثاني (ج 3 و 4) .

إن تفاعلت الحياة الاجتماعية والفكرية بتيار الثقافات المترجمة، فإن أثرها في الحياة الأدبية كان متفاوتا، حيث ظلت مناهج الأداء ولغة الكتابة والشعر قريبة مما كانت عليه، بينما تطورت معاني الكتاب وخيالات الشعراء، متأثرة في ذلك بما ترجم من فلسفة اليونان ومنطقهم، حيث اصطبغت عقلية الأدباء بها ومالت إلى الجدل والتحليل والتعليل وكثرة التقسيمات. ولذلك عرف العصر أدبا عربيا فيه معاني الفرس وبلاغة العرب، فكثير من أدباء وكتاب العصر يعودون إلى أصول أعجمية وإن تربوا في البيئة العربية. ونظرا للترف الذي عرفته بعض الطبقات الاجتماعية المقربة من البلاط الحاكم، ظهر التأنق في النثر والشعر، ومال الشعراء إلى الرقة والدماثة ، كما كثرت فيه الحكم والقصص، وظهرت المؤلفات الجامعة كالبيان والتبيين والحيوان...، وفيه أصبح الأدب صناعة علمية، تغلب عليها سعة الخيال وكثرة البراهين العقلية والأمثال والمبالغات.

وكان لظهور الموالي وعلو منزلتهم أن برز الشعور القومي، وتطور إلى حركة شعوبية صريحة، أخذ أعلامها يزرون جهارا بالعرب ويتتبعون مثالبهم ، ينسبون لهم من المخازي ما ليس لهم في أشعارهم ومؤلفاتهم أمثال بشار بن برد والخريمي وأبي نواس (من الشعراء) وأبي عبيدة والهيثم بن عدي وسعيد بن حميد وعلاّن الشعوبي من الكتاب، وقد انبرى للرد على هؤلاء نخبة من الشعراء والكتاب كالجاحظ وابن قتيبة ومحمد بن يزيد المبرد .

وإن ازدهر الشعر وبعض فنون النثر فإن الخطابة ضعفت بزوال أسبابها وعجمة رجال الدولة وصار في الكتابة غنى عن الخطابة، حيث احتلت الرسائل منزلة عالية، وتفوق الكتاب ونافسوا فحول الشعراء، ونبغ منهم جمهور كبير.

وأثر الفرس في الأدب العربي كبير فهم الذين أشاعوا فيه اللهو والمجون ووصف الخمر والتغني بها، والغزل بالمذكر، ومن الفرس كان كبار أوائل الكتاب الواضعين لأسس صناعة الإنشاء. وقد مكن للأدباء انغماسهم في ما راج من مدنية بلهوها الخليع ومجونها السافر من تصوير الحياة في جميع جوانبها. وملئوا شعرهم بالتحريض على متع الحياة. وفي بالمقابل يقف تيار الزهد للحد من سطوة تلك الحركة المادية الجارفة. أما الحياة القاسية الشقية وشظف العيش فقد وجد فن المقامات أداة لتصويره، واتخذ منها الكادحون وسيلة يحتالون بها على العيش بالمكر والخداع كما رسم ملامحها الشعراء الذين لم تتح لهم فرص الارتقاء إلى البلاط .

وقد عرف الشعر العباسي تيارين لكل منهما خصائصه ومميزاته :

- تيار الشعر البدوي بما يشمل عليه من خصائص.

- وتيار الشعر الحضري بما يحمله من سمات وخصائص.

كما تميز العصر بعناية الخلفاء الفائقة بالشعر والشعراء إذ كان الخلفاء والأمراء عربا يحرصون على رواية الشعر وإحيائه ويهتزون لسماع الجيد منه ويرتاحون للرائع منه، ولا يرون حرجا في مكافأة الشعراء المبدعين والإغداق عليهم وإغراقهم بالمنح والهبات، حتى تجاوزت آمالهم التكسب بالشعر للعيش إلى طلب الثراء الواسع واختزان الأموال والغرق في البذخ والنعيم، حتى رأيناهم يضاهون الملوك في المنزلة، ويساوون ذوي اليسار في نعيم العيش وامتلاك الضياع والقصور.

" فقد مات سلم الخاسر عن خمسين ألف دينار"[1] ، وقد كان لخلفاء هذه المرحلة بصر وخبرة بالشعر ومشاركة ومعرفة وحذق، فهذا المنصور يموت ابنه جعفر فتشتد به اللوعة ولا يجد سبيلا للعزاء غير قصيدة أبي ذؤيب الهذلي في رثاء ابنه ومطلعها :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع.

إذ يطلب من ينشده القصيدة ولا يجده إلاّ بعد لأي [2]، وكان الرشيد شاعرا إلى جانب عنايته بالشعر وأهله. ولا أحد ينكر مكانة بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحترى والمتنبي في عصرهم، كما يروى أن المهدي حفظ شعر ذي الرمة، وأن المفضل الضبي جمع مفضلياته لولدي الخليفة المهدي.

كما أصبح الشعر إلى جانب ما يقدمه من خدمات للحياة السياسية وسيلة للمتعة والتأدب ومعرفة أخبار الماضين.

سأل الرشيد مرة عن صدر البيت : ... "ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه " وكان الأصمعي مريضا فأرسل إليه بهدية ليقينه بالجواب، فكتب إليه يخبره أنّه بيت لأبي النشناش وصدره : وسائله أين الرحيل وسائل، من قصيدة :

إذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح سواما ولم تعطف عليه أقاربه.

---

1 - ينظر : الأصبهاني- كتاب الأغاني- دار الثقافة – ط 6- 1404-1983- 19 / 244 .

2 - ينظر : الوافي بالوفيات للصفدي.

وكذلك كان المأمون، فقد أعطى ابن الجهم ولاية من أجل بيت طلبه فوجده عنده، فلم يجتمع على باب أحد من الخلفاء ما اجتمع على باب المأمون والرشيد من الشعراء، ويشبههما في العصر العباسي الثاني سيف الدولة والصاحب بن عباد. كما كان البرامكة وآل سهل وآل طاهر من المثيبين على الشعر الجيد، العارفين بمكانته.

ب - **الأدب في العصر العباسي الثاني**[1].

عرف العصر العباسي الثاني نهضة أدبية شملت جميع ألوانه وفنونه ومست موضوعاته وأفكاره وقوالبه ومعانيه وأخيلته وألفاظه ... وتجلت ملامح ذلك التجديد بقوة في ظل الخلافة العباسية وفي ظلال بعض الدويلات والعواصم الثقافية الأخرى.

1- **الأدب في ظلال بني بويه** : غلبت عليه الروح الفارسية، وقد شجع هؤلاء ووزراؤهم الأدب وأهله، وتفرغ بعضهم للأدب والشعر مثل عز الدولة وأبي العباس بن ركن الدولة الشاعرين، وتاج الدولة الذي كان آدب آل بويه وأشعرهم، وعضد الدولة وكان شاعرا وأديبا، وقد قصده فحول الشعراء كالمتنبي. كما استوزر بنو بويه أبرع الكتاب وأبرزهم مثل ابن العميد والصاحب بن عباد والمهلبي وابن سعدان، فابن العميد يميل إلى العلم، والمهلبي والصاحب بن عباد أديبان يميلان إلى الأدب، وأما ابن سعدان فكان صاحب ميول فلسفية، وكل ذلك كفيل بخلق جوّ علمي بارز في البلاط البويهي.

وقد اجتهد الأدباء والشعراء في ظل هذه الدولة في التأنق في الأسلوب واستعمال المحسنات البديعية، وكان رأسهم في ذلك ابن العميد الذي قلده الكتاب والأدباء، واتبعوا طريقته، كما كان الصاحب بن عباد شديد الولع بالسجع إلى حدّ الإفراط.

2- **الأدب في ظلال السلاجقة** : سار الأدب في طريقه المرسوم له من قبل، وإن كان اهتمام السلاجقة بالأدب معدوما، إذ لا ذوق لهم في الأدب والشعر ولا ثقافة لهم في علوم العربية ومعارفها، فقد انشغلوا بالحروب عن غيرها، كما اهتموا بالحفاظ على سلطانهم من الفتن والدسائس، ولم يشجعوا شاعرا ولم يراعوا أديبا، وكذلك كان

---

1 - ينظر : شوقي ضيف - العصر العباسي الثاني .

وزراؤهم وولاتهم، فضاقت أنفاس الشعر وبارَتْ سوق الأدب، حتى وجدنا شاعرا كبيرا مثل ابن التعاويذي (ت 538) يقول في ممدوحه الذي لم يشعر بحاجته [1]:

فيا مولاي هل حُدِّثت عني بأني من ملائكة السماء
وأن وظائف التسبيح قوتي وما أحيا عليه من الدعاء
وهل في الناس لو أنصفت خلق يعيش كما أعيش من الهواء
فلا في جملة الأحرار أدعى ولا بين العبيد ولا الإماء[2]

3- الأدب في ظل الدويلات الأخرى :

أ - **في ظل الحمدانيين (317-394)** (حلب – الموصل – ديار بكر)، تنتمي إلى عرب تغلب، كان رأس هذه الأسرة عبد الله بن حمدان والي الموصل لدى الخليفة المكتفى، وبعد عام **333هـ** استولى سيف الدولة بن حمدان على حلب ثم استقل عن الخلافة (333–356)، وكان سيف الدولة أميرا عربيا، أديبا وشاعرا، نافس غيره من الملوك في العلم والأدب فجمع حوله العلماء ومنهم أبو الفرج الأصفهاني، والشعراء وعلى رأسهم المتنبي، وفتح لهم خزائن أمواله، فجادت قرائحهم بأعذب الشعر وأجمله، ووصفوا بلاد الشام وجمالها وبساتينها وما كان لسيف الدولة من معارك ضد الروم، فنهض الشعر وراجت سوق الأدب في أيامه، حتى قيل أنّه لم يجتمع في قصر ملك من الأدباء والشعراء مثلما اجتمع في قصر الرشيد والمأمون وسيف الدولة والصاحب بن عباد. وكان من أمراء هذه الدويلة الشعراء مثل أبي فراس الحمداني، ولعروبة الحمدانيين ومواهبهم الأدبية ومنافستهم للعباسيين أثرٌ في تشجيعهم للأدب والأدباء، ويروى عن سيف الدولة و المحيطين به المشتغلين بالشعر ما لم يرو عن غيره، فقد كان طباخه شاعرا وقيم دار كتبه شاعرا وممن أحاط به من الشعراء المتنبي وأبو العباس النامي وابن نباتة السعدي وأبو فراس وأبو الفرج الببغاء، والوأواء الدمشقي والسري الرفاء ... وغيرهم ممن كانوا يفدون عليه ويرحلون فيجزل لهم العطاء، وفي ذلك يقول

---

1 - الأبيات لسبط بن التعاوذي في ديوانه وقبلها:

وَرَأَيْتُكَ عُدَّتِي لِغَدي وَيومي وَذَخري في الشَدائِدِ وَالرَخاءِ

2 - ينظر : حامد حفني داود – الآداب الإقليمية – ديوان المطبوعات الجزائرية – الجزائر – ط2 – 1981

الثعالبي : « حضرته مقصد الوفود ومطلع الجود وقبلة الآمال ومحط الرحال وموسم الأدباء وحلبة الشعراء ... »[1].

ب – **في ظل الفاطميين** (359–567هـ) وكانوا عربا ينتسبون إلى البيت النبوي[2].، وهم مثل الحمدانيين أصحاب ثقافة عربية يحبون الأدب ويتذوقون الشعر، ويعرفون وقعه في النفوس، لذلك أكثروا من استرضاء الأدباء والإغداق عليهم، وما قصتهم مع الشاعر ابن هانئ إلا دليل على ذلك. ومنهم من كان شاعرا مثل تميم بن المعز الفاطمي [3]. (337-374) **وإن لم يل المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه نزار**.. وكذلك كان قضاتهم وولاتهم يشجعون الأدباء والشعراء، أمثال قاضيهم على الإسكندرية مكين الدولة أبو طالب المعروف "بابن أبي حديد"، فقد احتذى بالبرامكة فتجمع حوله عدد من الشعراء ومنهم ظافر بن الحدا وأمية بن عبد العزيز.

كما كان لديوان الإنشاء أثر في نهوض الأدب فهو كما يقول القلقشندي : « لا يتولاه إلاّ أجل كتاب البلاغة ويخاطب بالشيخ الأجل،... و يستشيره الخليفة في أكثر أموره ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه »[4] من أشهر شعرائهم ابن وكيع (**393**) ومن أشهر كتابهم ابن الصيرفي.

---

1 – ينظر : الثعالبي – يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر – تحقيق مفيد محمد قميحة – دار الكتب العلمية– لبنان– ط1– 1403هـ –1983. 37/1 .وينظر من المصدر نفسه الباب الثاني والثالث– ص 37- 75 .

2 – ينظر : ابن بسام – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة– تحقيق إحسان عباس– دار الثقافة –بيروت– 1417هـ 1997– القسم الثالث– المجلد893/1- 903 .

3 – هو تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي الفاطمي، أبو علي(337 – 374 هـ = 948 – 985 م): أمير، كان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب، فربي في أحضان النعيم، ومال إلى الأدب، فنظم الشعر الرقيق، وكان فاضلا. لم يل المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه نزار.وتوفي بمصر.له ديوان شعر.

4 –القلقشندي – صبح الأعشى في صناعة الإنشا – المطبعة الأميرية – القاهرة 1332هـ– 1914-م 3/ 490 .

ج – **في ظل الأيوبيين (567–648هـ)**. ورث الأيوبيون ملك الفاطميين ودولتهم، واقتفوا آثارهم في رعاية الأدب وتشجيع الشعر، ففي عهدهم تابع الأدب سيره، حيث أولاه سلاطينهم رعاية، وأكثروا من بناء المدارس والمكتبات، وتنافس الأدباء في ظلهم من أجل الوصول إلى أعلى المناصب وأجزل العطايا. وفي عهدهم قامت الحروب الصليبية. فكان لذلك أثره في نهضة الشعر والخطابة، ولعل أبرز أعلام الأيوبيين صلاح الدين الذي ظفر بملك الفاطميين، هتف الشعراء به مخلصا ومنقذا، فلم يبخل عليهم بما تحت يده وإن قلّ، ومن أشهر شعراء الدولة ابن النبيه المصري والبهاء زهير ... والأيوبيون أكراد تعربوا فكانوا كالبويهيين، حيث نبغ جماعة منهم في الشعر والأدب ،منهم بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، و من أمرائهم من كان شاعرا وأديبا. تذوقوا الأدب واحتضنوا الشعراء والأدباء وأكثروا منهم.

د – **في ظل سائر الدويلات** : مثل الدويلة الزيارية لقابوس بن وشمكير الزيارى الذي كان أديبا يجتمع حوله عدد من العلماء الأدباء والشعراء أمثال ابن سينا والبيروني، وكذلك كانت الدولة السامانية الأعجمية والدولة الغزنوية، الفارسيتي الثقافة واللسان حيث نبغ في أيامهما عدد من الأدباء من ذوي اللسانين، أمثال الوزير البلعمي، وقد عرف الأدب العربي نشاطا كبيرا في بلاد المغرب الإسلامي في هذه المرحلة ونبع شعراء بارزون هناك كبكر بن حماد الزناتي وابن زيدون وابن خفاجة ... وغيرهم.

– **نشأة الآداب القومية** : في ظل هذه الدول والدويلات وبتشجيع القائمين عليها نشأت الآداب القومية، لتمثل حياة تلك الدويلات والأقاليم التي نشأت فيها وتصور البيئة وما يجد فيها من أحداث سياسية، ولكنها مع ذلك ظلت قريبة من الحركة الأدبية العربية لاشتراك تلك الممالك في الدين واللغة والثقافة، ثم لكثرة الرحلات بينها. وهكذا تنوعت الآداب بتنوع الممالك واختلاف البيئات والعادات، ونشأت الآداب القومية.

فإذا جئنا إلى الحياة الاجتماعية وجدنا البلاد العربية تعج بأجناس شتى، لكل منها مقوماته الثقافية والنفسية والاجتماعية وحد بينها الإسلام والجوار والمصاهرة فنشأ عنها جيل جديد سمي بجيل المولدين. وإن كانت الثروات المتدفقة كثيرة فإن العامة لم يطلها منها شيء وإنما طالتها الحروب والفتن والمصادرات، كما كثر الجواري والغلمان في القصور وبيوت المترفين وكان من نتائج ذلك ظهور طبقة من المنحرفين

والمجان والمستهترين بالدين وقيمه، وتعدد في التقاليد والأزياء والمواسم والعادات والأعياد والحفلات وألوان اللهو.

وقد أثرت حياة اللهو في الأدب، فرأينا أدب الترف والنعيم يعيش في مجالس الحكام والأمراء والوزراء والمترفين من وصف القصور والحدائق والمآدب والحفلات ومجالس الغناء واللهو والترف، كما شاع في ظل ذلك أدب الإخوانيات، وإلى جانب هذا ذاع أدب الفقر والحرمان، ومنه أدب الكدية الذي كانت المقامات نموذجا له، وظهرت طائفة من شعراء الطبقات الكادحة وشعراء الكدية والصعلكة أمثال الأحنف العكبري وأبو دلف الخزرجي و أبو الشمقمق والخبزأرزي وجحظة[1]، وذاع أدب الشكوى، وأدب الزهد، وأدب المجون واللهو و وصف الخمر، وأدب النقد الاجتماعي وغيره.

وقد أثرت هذه الحركة العقلية في الأدب تأثيرا كبيرا، حيث أمدته العلوم الإسلامية والمترجمة بمواضيع وأساليب جديدة، ونشأت فنون جديدة كالنقد والموازنة والبلاغة وإعجاز القرآن، وابتكرت فنون أدبية جديدة كالأدب الفلسفي والأدب القصصي، إلى جانب شيوع المصطلحات العلمية الجديدة في أساليب بعض الأدباء.

انتشر التدوين في هذا العصر وأصبح إحدى ضرورات الحياة، وتعدّدت أغراضه وموضوعاته، وتنوعت أشكاله بين كتب مفصلة وأخرى مجملة، ورغّب تنافس الدول المجاورة العلماء في طلب المزيد، فراحوا يصنفون الكتب بأسماء الأمراء والوزراء فكثرت المصنفات في شتى العلوم من أخلاق وآداب الملوك، وسياسة الملك وقيادة الحرب وتدبير الأموال وتدبير المنزل ومعرفة أسباب العمران، واتسع مجال البحث في الطب والحساب والجبر والهندسة والكيمياء والفلك والجغرافيا والمنطق وعلم الكلام. وتفشى أمر اختراع الأساطير والحكايات الخرافية وقصص الشجعان التي كانت زاد القصاصين في أسمارهم.

ومن أشهر المدارس التي عرفها العصر العباسي الثاني المدرسة النظامية ببغداد (457هـ) كما قامت إلى جانب المدارس أربطة كثيرة للصوفية، وكتاتيب لصغار

---

1 - ينظر : ابن المعتز - طبقات الشعراء - تحقيق عبد الستار أحمد فراج- دار المعارف- مصر- 127، 171 .و شوقي ضيف- تا ريخ الأدب العربي- العصر العباسي الثاني - 499 وما بعدها.

المتعلمين، وأنشئت دور كتب عظيمة إلى جانب خزائن كتب الخلفاء و الوزراء التي تعج بمئات الألوف من المجلدات.

وإن حرص المؤلفون أول الأمر على الروايات باختلاف طرقها وأثبتوا أسانيدها، وبخاصة في علم الحديث والتفسير فالأدب والتاريخ، فإنهم أواسط العصر وأواخره أخذوا يهملونها لكثرتها واتساع دائرة العلوم، وفي أواخر العصر العباسي عرفت مصنفات العلوم والفلسفة نوعا من الغموض والتعمية، وأصبح التأليف مجرد جمع وربط بين عبارات منقولة، ومال الناس إلى الصناعة اللفظية وإلى الأساطير والخرافات، ولعلّ أشهرها جميعا وأكثرها صرفا للناس وشغلا لهم قصة "ألف ليلة وليلة" ثم تأتي بعدها قصص أبطال العرب وسيرهم مثل قصة عنترة بن شداد التي أضاف إليها القصاص من خيالهم عبر العصور حتى حوّلوها إلى شخصية أسطورية خرافية، ومثل قصة سيف بن ذي يزن والشاطر حسن وغيرها كثير...

ففي أواخر العصر العباسي عرفت الحركة العلمية فتورًا كبيرا، بضعف المماليك واستعجام حكوماتها وتفشي الجهل في الخاصة والعامة، حتى إذا جاء التتار اجتث ما بقي للأمّة الإسلامية وطمس جهود علمائها وأدبائها، حيث أحرق ومزق جلّ مصنفاتهم ورمى بها في نهري دجلة والفرات.

أولا : حركة الشعر في العصر العباسي :

كانت الحياة العباسية تموج بما تحمله من ثقافات مختلفة وأجناس متعددة وأهواء متضاربة، فراج اللهو والمجون وعمت الثقافات والعلوم والصناعات ، وقد شجع الخلفاء كل هذه الاتجاهات، وانغمس بعضهم في ملاهيها ومجونها. وكان الشعراء أسبق الطوائف إلى الاستمتاع والتفاعل مع جديد العصر الذي كان له الأثر الكبير على الشعر شكلا ومضمونا.

وقد حاول اللغويون رد الشعراء إلى الاقتداء بالنموذج الجاهلي الذي هو الأصل عندهم وما عداه فروع لا ترقى إلى الأصل وإن حسنت، بقول "ابن الأعرابي" : « إنما أشعار هؤلاء المحدثين –مثل أبي نواس وغيره– مثل الريحان يُشم يوما ويُذْوى فيرمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا»[1] . وقد تبرم

1 – ينظر : المرزباني – الموشح: مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر– تحقيق محمد البجاوي– دار النهضة–مصر– 1965– ص 384

الشعراء بهذه الآراء حتّى ليروى أن "ابن مناذر" كان يقول لأبي عبيدة : « اتق الله واحكم بين شعري وشعر عدي بن زيد ولا تقل ذاك جاهلي وهذا إسلامي، وذاك قديم وهذا محدث فتحكم بين العصرين ولكن احكم بين الشعرين ودع العصبية » ، وقد أفاد الشعر العباسي من مواقف اللغويين من جهة إذ راح كل منهم يسعى نحو الإجادة، ولكنها قيدت انطلاقه من جهة أخرى، كما حرص الشعراء على سلامة لغتهم وابتعدوا عن اللحن، وقصد بعضهم البادية وأقام فيها خوفا من الحواضر وما شاع فيها من لحن، وظل شكل القصيدة الجاهلية قائما عند البعض من بكاء على الأطلال وذكر للرحلة وبخاصة في شعر المديح، وطرأت بعض التغييرات على القصيدة العربية عند البعض الآخر، وذلك تبعا لتغير الحياة العربية.

فلم يعد العرب —في الغالب– يعرفون أطلال الخيام وإنما أطلال القصور والدور، ولم يعودوا يتغنون برمال الصحارى الممتدة وإنما بالبساتين والرياض ودور اللهو، هذا إلى جانب ميلهم إلى رقة الأسلوب وحسن سبكه وخفته.وقد ظهرت موجة من التمرد على عمود القصيدة العربية والأوزان الشعرية.

أما مضامين الشعر فقد تأثرت بالثقافات الأجنبية من هندية ويونانية وفارسية ، أما الثقافة الفارسية فقد كانت شديدة التأثير في الشعر العربي العباسي، وفي الحياة العباسية عامة، إذ تعلقت الطبقة الراقية بكثير من عادات الفرس وتقاليدهم، بحيث لا يمكن حصر مظاهر التأثير الفارسي في الشعر العباسي ، وكان للمنطق اليوناني أثره أيضا في الشعر العباسي، فقد استعار الشعراء بعض الأفكار الفلسفية اليونانية ووظفوها في أشعارهم، ولم يقف الشعراء عند الأخذ عن الثقافات الأجنبية، فدخلوا غمار المعارك الكلامية التي كانت قائمة بين الفرق الإسلامية كالمعتزلة والأشعرية والرافضة والزيدية والكيسانية، وأخذ الشعراء يعالجون المشاكل المطروحة على مستوى تلك الفرق من خير وشر وتخيير وجبر، من ذلك قول بشار بن برد بالتسيير ليجد لنفسه المبررات لما كان ينتهجه في حياته من لهو ومجون وتهتك وغزل فاحش وترك للصلاة...، وقد بلغ الأمر حد اتهامه بالزندقة:

طبعت على ما في غير مخير هواي ولو خُيّرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد ويقصر علمى أن أنال المغيبا
فاصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما أعقبت إلا التعجبا
لعمري لقد غالبت نفسي على الهوى لتسلى فكانت شهوة النفس أغلبا

ومن عجب الأيام أن اجتنابـها   سهـل وأني لا أطيق التجنّبا [1]

بواكير التحول من الخضرمة إلى العباسية :

إذا كان التغير السياسي في العصر العباسي قد أخذ شكل الطفرة وكان أقرب إلى التغيير المفاجئ فإن ذلك يتبعه لا محالة تغيير في الإبداع الفني وسائر المجالات الأخرى. إلا أن التغيير الفني لا يمكن أن يكون مفاجئا وإنما يحتاج إلى وقت أطول وإلى فترة نمو فنضج فتألق. فالملاحظ أن الشعر العباسي في بداية العصر كان يحمل مزيجا من المزايا، وكان يتأرجح بين الطابع الأموي والطابع العباسي لأن جلّ رواده من المخضرمين الذين يمكن تصنيفهم إلى طوائف ثلاث واحدة متمسكة بالأرضية الفنية الأموية الرافضة لغيرها، وأخرى تقف بثقلها على الأرضية الأموية ولكنها تطلّ قليلا على الجديد العباسي، وثالثة تضع نصفها فوق الأرضية الأموية والنصف الآخر فوق العباسية وهي حاملة لواء التجديد ورائدته لا محالة .

الطائفة الأولى : هي الطائفة المحافظة التي امتازت بجزالة الأسلوب وإشراقه ونقاوته من أعلامها

"الأحيمر السعدي"[2] (ت 170هـ) الذي عاش أكثر حياته في الصحراء وقطع الطريق،(فلا عجب أن نجده في خضم الترف العباسي والرفاهية يخلو إلى نفسه وإلى وحوش الطريق، ويفضل ذلك العالم على هذه الحياة الجديدة الصاخبة ، وينشد[3]:

رأى الله أني للأنيس لشانئٌ   وتبغضهم لي مقلة وضمير

فللّيل إن واراني الليل حكمُه   وللشمس إن غابت عليّ نذير

وإني لأستحيي لنفسي أن أرى   أمرُّ بحبل ليس فيه بعير

وأن أسأل العبد اللئيم بَعِيرهُ   وبُعران ربي في البلاد كثير

وقد سلك الشاعر سبيل الصعلكة على نهج من سبقه من صعاليك الجاهلية والإسلام.ونجد إلى جانبه أبا العباس الأعمى واسمه الحقيقي« السائب بن فروخ»

---

[1] – ينظر : حامد حفني داود – الآداب الإقليمية – ديوان المطبوعات الجزائرية – الجزائر – ط2 - 1981.

2 – عمر فروخ – الأعصر العباسية – 2/98-103.

3 – الأبيات بروايات مختلفة وترتيب مختلف في حماسة الخالـدين واللآلئ والمؤتلف والمختلف وعيون الأخبار ومحاضرات الأدباء والمستطرف وغيره...

الذي سخّر شِعره لمدح بني أمية فإذا زال ملكهم قضَى بقية عمره في بكائهم ورثاء دولتهم وهجاء أعدائهم وقد عد سباقا إلى رثاء الدول البائدة، من ذلك قوله :

ليت شعري أفاح رائحة المسـ كِ وما إن إخال بالخيف أنسِي

حينَ غابت بنو أمية عنْـهُ والبهاليل من بني عبد شمس

ومن أشهر شعراء هذه الطائفة الراجز ابن ميادة (149هـ) [1] الذي التزم الأموية وحافظ على معالمها وتراثها، ولاسيما الغزل العفيف، والأصالة في المديح. كما أبقى على جانب من الهجاء والمناقضات، إذ كانت له مع صاحبه الحكم الخضري مناقضات ومباريات كثيرة.

2- **الطائفة الثانية**: هي تلك التي حافظت على أصالة الجو الفني الأموي قدر المستطاع ورضيت لنفسها ببعض التطور دون إسراف أو عجلة، فلا يغيب عنها الماضي ولا تغفل عن الحاضر. من شعراء هذا الاتجاه "سُدَيْفُ" [2] الذي حمل على بني أمية في عهدهم وظل يدعو العباسيين للقضاء على الثلة الباقية منهم، يقول مخاطبا السفاح :

لا يغرّنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا.

وقد غدت أبياته هذه شعارا رفعه بنو العباس و جالدوا به آخر من أدركوه من الأسرة الأموية.

وفي رواية :

جرّد السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا[3].

ثم يتحول بعد ذلك من عباسي الهوى إلى حسيني الهوى، ويبقى يتتبع جديد عصره فيرصدهُ في شعره. ومن شعراء المرحلة أيضا الأمير الأموي "عدي العبلي" الذي ثار على بني أمية وشايع العلويين فنجا بذلك من إبادة السفاح وأتباعه، وإن لم

---

1 - ينظر: عمر فروخ - الأعصر العباسية 2/ 67. و الأصبهاني- كتاب الأغاني- دار الثقافة-ط6-1404-1983- ص227/2 . وطبقات ابن المعتز- 107 .

2 - المرجع نفسه 2/65-67.

3 - يتظر : ابن العماد الحنبلي- شذرات الذهب في أخبار من ذهب-دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-ط1-بيروت-1979 - 187/1-188. وعمر فروخ - الأعصر العباسية - 2/ 67.

يغير الشاعر أسلوبه الأموي فإنه طرق موضوعا جديدا هو رثاء الدول، إذ رثى قومه وبكى على ما لحقهم من أذى.

وفي الرجز نجد "أبا نُخيلة"[1] الذي مثل عند العباسيين دور "مسكين الدرامي" لدى بني أمية وقد طور الأرجوزة ومهد الطريق أمامها فجعلها على نسق قصيدة المديح من وقوف على الأطلال ونسيب ورحلة و مديح .

ومن هذه الطائفة أيضا اشتهر الشاعر"مروان بن أبي حفصة"[2] الذي حاول مدح حكام بني العباس فلم يفتحوا له صدورهم ولم يدخلوه بلاطهم بسبب مدحه عاملهم "معن بن زائدة" والإفراط في البكاء عليه، لكنه عمد إلى العزف على الوتر الحساس فمدح بني العباس بأحقيتهم في الخلافة، فأفلح وأصبح من شعرائهم المقربين.

1 - **الطائفة الثالثة** : هي المِمَثلة لمرحلة التطور والخلق والإبداع، ولكن في ظل الإطار التقليدي، ولعل شعراءها هم الذين وطّدوا دعائم التجديد، وهيأوا سبيله لكل من جاء بعدهم، وظلّوا ينظرون إلى الماضي من جهة وينطلقون إلى المستقبل من أخرى، أمثال "آدم بن عبد العزيز" و "الحسين بن مطير"[3] (95هـ- 157هـ) و "إبراهيم بن هرمة"[4] و "بشار بن برد"، وهم رؤوس التجديد الحقيقي في الشعر العربي، فهم على الرغم من انطلاقتهم التجديدية الإبداعية تمسكوا بشخصيتهم الفنية الأموية، فمدحوا ورثوا، والمدح منذ العصر الأموي محك مقدرة الشاعر، ومع هذا فقد خطا كل منهم خطوة في ميدان التجديد شكلا ومضمونا، "فآدم بن عبد العزيز"[5](160هـ) يقف على إيوان كسرى ويرثي الحضارة الزائلة، وهو فن جديد أخذ طابعه فيما بعد، وعرف "برثاء المدن والممالك" أو "رثاء الأمم الزائلة"، كذلك فعل ابن الرومي في رثائه مدينة البصرة لما خربها الزنج ليأتي البحتري بعد ذلك ويسجل

---

1 - ينظر :ابن المعتز- طبقات الشعراء - ص64 . و عمر فروخ - الأعصر العباسية - 2/69-71.

2 - ينظر :ابن المعتز- طبقات الشعراء- 45 .

3 - ينظر :ابن المعتز- طبقات الشعراء- 116-119 .

4 - ينظر : المرجع نفسه - 20 .

5 - تنظر أخباره في : عمر فروخ - الأعصر العباسية- 2/106.و كتاب الأغاني -15/ 227.

سينيته المشهورة في إيوان كسرى[1] ويصبح بعد ذلك بكاء الدول فنا قائما بذاته في الشعر العربي.

فبعد أن كان الشاعر العربي يقف على الأطلال يبكيها ويسألها ويتذكر أيامه الحسان عندها، وجدنا "آدم بن عبد العزيز" يقف على أطلال كسرى يبكيها وينشد أبياتا تحمل الكثير من الحسرات المكتومة ويعلن أسفه الشديد على تحول ذلك القصر من إيوان عظيم يقيم به الملوك وحاشيتهم إلى مجرد بقايا متهاوية تربط بها البغال، يقول:

أقول وراعني إيوان كسرى　　برأس مغَان أَوْ أَدرو سَفان
وأبصرت البغال مربطات　　به من بعد أزمنة حسان
يعز على أبي ساسان كسرى　　بموقفكن في هذا المكان
شربت على تذكر عيش كسرى　　شرابا لونه كالزعفران
ورحت كأنني كسرى إذا ما　　علاه التاج يوم المهرجان.

هذا وله أشعار في وصف الخمر والتغني بها، وربما كانت وغيرها من الأشعار الأرضية والمنطلق لأبي نواس ومن شاكله فهو من أوائل الشعراء الذين اختصوا الخمر بوقفات مطولة يصفون صناعتها ولونها وشكلها وأوانيها وساكبها وأثرها في شاربها ... وكل ما تعلق بها من قريب أو بعيد ، من ذلك قوله :

اسقني واسق خليلي　　في مدى الليل الطويل
قهوة صهباء صرفا　　سبيت من نهر بيل
لونها أصفر صاف　　وهي كالمسك الفتيل
في لسان المرء منها　　مثل طعم الزنجبيل
ريحها ينفح منها　　ساطعا من رأس ميل
من ينل منها ثلاثا　　ينس منهاج السبيل
فمتى ما نال خمسا　　تركته كالقتيل
ليس يدري حين ذاكم　　مادبير من قبيل[2].

1 - البحتري – الديوان- تحقيق حسن كامل الصيرفي- دار المعارف- مصر 1963- 2/ 1153-1154.

2 - الأصفهاني - الأغاني - 287/15.

كما كانت له مداعبات وسخريات لطيفة مع بعض أصحابه، كانت فيما بعد أساسًا للشعراء الذين جاءوا من بعده وحملوا لواء الهجاء المتهكم الساخر وعلى رأسهم "ابن الرومي" من ذلك قوله في أسيد بن أسيد وقد كان وافر اللحية :

لحية تمت وطالت لأسيد بن أسيد
يعجب الناظر منها من قريب أو بعيد
هي إن زادت قليلا قطعت حبل الوريد[1] .

ومن شعراء هذه المرحلة "الحسين بن مطير"[2] (165هـ) الذي أعاد العذرية للغزل ودعا إلى الحرص على إظهار معاني العفة، وبعث شعر الحكمة من جديد بعثا قوِيًّا راسخا كما كان الشاعر من أوائل من وصفوا الروض، وشغل النقاد بذلك وأثْنى عليه "ابن المعتز" فقال في شعره : « هذا –كما ترى–شعر كأنّه الديباج، بل نظم الدر في حسن وصف وإحكام رصف» من وصفه للطبيعة قصيدته التي أضحك الأرض فيها من بكاء السماء، نقتطف منها قوله :

جاورونا والأرض مُلبسةٌ نو ر الأقاحي تُجاد بالأنـواء

---

1 – جاء في الأغاني: كان مع المهدي رجل من أهل الموصل يقال له سليمان بن المختار، وكانت له لحية عظيمة، فذهب يوماً ليركب فوقعت لحيته تحت قدمه في الركاب فذهب عامتها، فقال آدم بن عبد العزيز:

قد استوجب في الحكم سليمان بن مختار
بما طول من لحيـ ته جزا بمنشار
أو السيف أو الحلق أو التحريق بالنار
فقد صار بها أشه ر من راية بيطار

فقال: ثم أنشدها عمر بن بزيغ المهدي فضحك، وسارت الأبيات، فقال أسيد بن أسيد، وكان وافر اللحية: ينبغي لأمير المؤمنين أن يكف هذا الماجن عن الناس. فبلغت آدم فقال: لحية تمت وطالت لأسيد بن أسيد

كشراع من عباء قطعت حبل الوريد
يعجب الناظر منها من قريب وبعيد
هي إن زادت قليلاً قطعت حبل الوريد.

2 – ابن المعتز – طبقات الشعراء – تحقيق عبد الستار أحمد فراج– دار المعارف– مصر– 116- 119 و الأغاني – 16/16-27.(في العقد الفريد: جاورونا. وفي الأغاني ومعاهد التنصيص: فارقونا) .

كل يوم بأقحوان جديد   تَضْحَكُ الأرض من بكاء السماء[1].

ويتصدر هذه المرحلة جميعا شاعران مجيدان هما "إبراهيم بن هرمة" و "بشار بن برد"[2] فهما يمثلان الممر الذي عبر عليه الشعر من عصر إلى عصر، يقول الجاحظ : « لم يكن في المولدين أصوب بديعا من بشار" و ابن هرمة" مع أنهما كانا يقفان في المديح على الأرضية الأموية من حيث البناء رغم إبداعهما وابتكارهما في مجال المعاني، كما كان بينهما شبه في أمور شتّى وإن تفاوتا في بعض الصفات، ففي الهجاء نجد مثلاً ابن هرمة يهجو دون أن يفحش بخلاف بشار الذي كثيرا ما كان يتردى إلى هاوية الإفحاش والإقذاع. وفي السياسة نجدهما يمدحان بني العباس وإن كان "ابن هرمة" شيعيّ الهوى و "بشار بن برد" أمويَّهُ، كما اصطنع كل منهما الحكمة فجاءت عذبة ترسخ في نفوس الناس وتِثر فيها، وأسهما بنصيب وافر في قول الغزل، إلا أن غزل ابن هرمة رفيع في مجمله بينما جمع "بشار" بين الرفيع والغث الساقط، وكلاهما مزج رقة البداوة وصفاءها بزهو الحضارة وخفتها وشعر "بشار" أكثر رواجا من شعر "ابن هرمة" الذي لم يغرق في دنيا الحضر، ومنه فقد كان بمنأى عن السقطات التي تردّى إليها "بشار" ولاسيما جنوحه إلى الزندقة.

هذا وقد كان لابن هرمة[3] قفزة عاجلة حاول فيها الانتقال بالفن إلى الصناعة اللفظية، وكان بها سباقا إلى مجال الزخرف اللفظي، من ذلك قوله يمدح الخليفة المنصور :

كريم له وجهان، وجه لدى الرضى   طليق ووجه في الكريهة باسل

وليس بمعطي الحق في غير قدرة   ويعفو إذا أمكنته المقـاتل

له لحظات من حِفافي سريره   إذا كرّها فيها عقابٌ ونائِـل

فأمُّ الذي أمنت آمنة الردى   وأم الذي حاولت بالثكل ثاكل[4].

ومن ذلك أيضا نظمه قصيدة طويلة في أربعين بيتا جميع حروفها مهملة، إلى جانب ما فيها من صور بديعة رائعة، منها قوله :

---

1 – الأبيات للحسن بن مطير في الأغاني و في خزانة الأدب للبغدادي و زهر الآداب عيار الشعر و معاهد التنصيص ونور القبس لليغموري.وفي العقد:أنشد الجاحظ لأعرابي.

2 – ينظر : عمر فروخ – الأعصر العباسية 2- /92-98.

3 – ينظر : ابن المعتز – طبقات الشعراء – 20-21.

4 – ينظر : الحصري – زهر الآداب.

أَرسمُ سودةَ محلٌ دارسُ الطلل معطّلٌ ردهُ الأحوالُ كالحَلَلِ

لما رأى أهلها سَدُّوا مطالعها رام الصدُود وعاد الودُّ كالمهلِ

وخلاصة القول فإن "ابن هرمة" يمثل الاتجاه القوي المرتفع الصوت نحو عوالم التجديد، ولكن في ثوب من وقار الجزالة وإشراق الديباجة ورقة الأسلوب، وهو قمة الصنعة في مجتمع المحافظين، وذروة التطور في بيئة عمود الشعر، ومنه التقط "بشار بن برد" معاصره الراية ليكون أول المطوّرين ولكنه كان تطويرا نحو التحلل من كل ماله صلة بالأخلاق أكثر من كونه تطويرا فنيا، ولعله هو الذي أعطى من جاء بعده من الشعراء الكثير من الجرأة على طرق المحظور، ثم إنّ "بشار" لم يخف شعوبيته الزائدة وتمجيده للعنصر الأعجمي ومحاولته الطعن في العنصر العربي وكل ما يتصل به، فقد تجاوز تمرده على ولاء العرب إلى الإسلام ،و بلغ به الأمر تفضيل إبليس على آدم – عليه السلام– يقول :

إبليس خير من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجَّار

النار جوهرة وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار [1]

وكانت له جرأة كبيرة على ارتكاب المحرمات رغم نهي الناهين، حتى بلغ الأمر الخليفة المهدي، فنهاه عن التشبيب، وسجل في ذلك قصيدة تحمل الخوف من الخليفة وعقابه لا التوبة مما نُهي عنه : يقول :

يا منظرا حسنا رأيته من وجه جارية فديته

بعثت إلي تسومني برد الشباب وقد طويته

والله ربّ محمدٍ ما إن غدرت ولا نويته

أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته

إن الخليفة قد أبَى وإذا أبى شيئا أبيتـه

ومخضّبِ رخص البنا ن بكى علي وما بكيته

قام الخليفة دونهُ فصبرت عنه وما قليتـه

لا بل وفيت فلم أُضِع عهـدا ولا رأيا رأيته[2]

1 – بشار بن برد– الديوان – شرح مهدي محمد ناصر الدين – دار الكتب العلمية – لبنان – ص 539 .

2 - المصدر نفسه – ص 208 – 209 .

مظاهر التجديد في القصيدة العباسية[1] :

عرفت حياة العصر العباسي وجها حضاريا جديدا بخلاف حياة العصر الأموي التي حافظت على بعض مظاهر البداوة ، ونظرا لذلك البعد الشديد عن كثير من ملامح الحياة العربية البدوية، فقد انعدمت الرابطة العاطفية بين شعراء العصر العباسي الجدد وبين معالم الحياة العربية الجاهلية. التي كثيرا ما كانت محورًا للشعر العربي، بما فيها من أطلال ونوى□ وصحراء وارتحال، فقد ظهر جيل جديد اصطلح الدارسون على تسميته بـ "المولد" استطاع أن يحمل لواء التجديد ويتخلص إلى حد بعيد من الكثير من مظاهر القصيدة العربية. وقد كان لذلك التجديد مظاهر بارزة ميزته أهمها:

1 - **البعد إلى حد ما عن القصائد المطوّلة:** إذا كان الشعر العربي قد قام على القصيدة المطولة وبخاصة الجاهلي الذي أصبح نموذجا يقتدى به، فإن شعراء العصر العباسي أخذوا يبتعدون عن القصيدة الطويلة، ويميلون إلى القطع الصغيرة وذلك تبعا لطبيعة التطور الحضاري الذي آل إليه المجتمع الإسلامي، فكلما تعقدت أسباب الحضارة وطرائق الحياة تسرب الملل إلى النفوس من الأعمال الأدبية المطوّلة، إذ لم يعد لديهم الوقت الكافي للوقوف أو التجمع للسماع كما كان يفعل القدماء في سوق "عكاظ" ثم في سوقي "المربد" و "الكناسة" لسماع الشعر الجيد، ولهذا لم تعد تلك الأسواق مسرحا لقول الشعر وتناشده. فوقت الناس صُرف في وجوه الحياة المتشعبة، من تجارة وصناعة وزراعة، كما صُرف وقت طائفة منهم في العكوف على اللذائذ ومجالس اللهو.

ومن دواعي الميل إلى المقطعات أن الشاعر العباسي أصبح في كثير من الأحيان (عدا المديح) يحدُّ قصيدته بفكرة معينة، لم تكن تستغرق منه في الغالب أكثر من أبيات معدودة، على خلاف الشاعر القديم الذي كان ينتقل في قصيدته أو معلقته أو نقيضته من فكرة إلى فكرة أخرى، حتى لتبدو القصيدة وكأنها تتكون من بضع قصائد مختلفة الأغراض والأفكار، هذا وقد كان للغناء أثره على الشاعر في أن

1 – ينظر : أحلام الزعيم – قراءات في الأدب العبا سي – الحركة الشعرية – مطبعة الاتحاد – جامعة دمشق – 1991–1411 – ص 77- 88 .

يقتصر على القطعة الصغيرة في الموضوع الواحد حتى يسهل تقديمها في إطار موسيقي جذاب يسمح لها بالسيرورة وسرعة الانتشار، وقد غُنِّيَ أكثر شعر القرن الثاني.

2 - **التجديد في مقدمة القصيدة:** أعرض بعض شعراء العصر العباسي عن افتتاح قصائدهم بذكر الأطلال ووصفها والبكاء عليها، لأن معظم شعراء هذا العصر من المولدين الذين لا تربطهم أية عاطفة بمعالم الحياة العربية الجاهلية، فما حاجتهم إلى تصوير شيء لا وجود له في مجتمعهم، وهم يعيشون في حواضر ذات مدنية راقية بقصورها ورياضها الوارفة الظلال، وقد عبر أبو نواس –وهو واحد من أبناء ذلك الجيل المولد– تعبيرا صادقا عن ذلك الشعور فقال :

مالي بدار خلت من أهلها شغل ... ولا شجاني لها شخص ولا طلل
ولا رسوم، ولا أبكي لمنزلة ... للأهل عنها وللجيران منتقل
بيداء مقفرة يوما فأنعتها ... ولا سرى بي فأحكيه بها جمل
ولا شتوت بها عاما فأدركني ... فيها المصيف فلي عن ذاك مرتحل
لا الحزن مني برأي العين أعرفه ... وليس يعرفني سهل ولا جبل
لا أنعتُ الروض إلا ما رأيت بِه ... قصرًا منيفا عليه النخل مشتمل
فهَاك من صفتي إن كنت مختبرًا ... ومخبِرًا نفرًا عني إذا سألوا[1].

ثم لماذا يتوجه إلى الديار الصماء بالحديث والسؤال وهي لا ترد جوابا، يقول ناصحًا مشفقا على أولئك الذين يطيلون الوقوف عندها محاولين استنطاقها عن تلك الذكريات الجميلة التي كانت لهم في ربوعها :

انس رسم الديار ثم الطلولا ... واهجر الربع دارسًا ومحيلا
هل رأيت الديار ردت جوابا ... وأجابت لذي السؤال سؤالا
واشربنها كأنها عين ديك ... يطرد الهم طعمها والغليلا[2].

وقد استجاب لهذه الدعوة الواقعية كثير من شعراء العصر العباسي فوجدناهم يستحدثون مقدمات جديدة تلائم طبيعة العصر العباسي من جهة كما في مقدمات وصف الطبيعة (عند أبي تمام والبحتري ...) والمقدمة الحكمية (عند المتنبي وأبي تمام

---

1 – أبو نواس – الديوان– تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي – دار الكتاب العربي – بيروت – ط1 – 1423-2003 - 523-524.

2 – المصدر نفسه – 38.

وأبي العلاء المعري)، ومنهم من حافظ على المقدمة التقليدية مع تقليص بعض عناصرها، ولكن أكبر حركة ثورية في هذا المجال هي تلك الداعية إلى استبدالها بالمقدمة الخمرية والتي يعدّ أبو نواس زعيمها، وهي حركة تغلب عليها النزعة الشعوبية الرامية إلى رفض كل مظاهر الحياة العربية بما في ذلك المعايير الفنية وتقاليد القصيدة العربية، من ذلك قول أبي نواس مستبدلا دور الخمر بالأطلال وما اتصل بها :

عاج الشقي على رسْمٍ يسائِلُهُ وعجت أسأل عن خمارة البلد

يبكي على طلل الماضين من أسد لادرّ درّك قل لي من بنو أسدٍ[1].

ولَمْ يكن "أبو نواس" وحده في ميدان الثورة على بكاء الأطلال وافتتاح القصيدة بما يتلاءم وواقع الحياة الجديدة ولكن نجد في الكفة الأخرى عددًا من الشعراء الذين دعوا إلى ذلك وطبقوه في أشعارهم. ولعل "أبا نواس " لم يكن سباقًا أيضا إلى هذه الدعوة، إذ وجدنا قبله "مطيع بن إياس" [2]،الذي عزف عن التغني بالصحراء المترامية الأطراف، من ذلك قوله :

لأحسن من بيد يحار بها القطا ومن جَبَلَي طي ووصفكما سلعا

تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى[3]

كما وجدنا "أشجع السلمي" [4] يستهل قصيدته في مدح الرشيد بوصف ماجن للخمر أشاح عنه الرشيد لما أنشدها برغم ما أضفى عليه من صفات، وبرغم جودة القصيدة، منها :

لا عيش إلا في جنون الصّبا فإن تولى فجنون المدام

كأسٌ إذا ما الشيخ والى بها خمسا تردّى برداء الغلامِ

ظاهرة الحسن إذا جُرّدت لطيفة المسلك بين العظام

لم يُشبِ الدهر لها مفرقا أخرجها من دنّها بنت عام

1 – المصدر نفسه – 55. في أخبار أبي نوا س للأصفهاني عاج الشقي على ربع، وفي إحدى طبعات الديوان:على دار يسائلها.

2 – وقبلهم جميعا وجدنا الكميت بن زيد ينادي بترك الوقوف على الأطلال، ولكن دعوته لم تكن دعوة فنية أو اجتماعية بل كانت سياسية، ثم جاء أشجع السلمي ونادى بأن تكون مسارح الشباب وضروب الملاهي موضوع المقدمات، وكذلك ديك الجن الحمصي.

3 – تنظر أخباره في كتاب الأغاني– 275/13 . وفي طبقات الشعراء لابن المعتز 94 .

4 – ابن المعتز – الطبقات – 252 .

ووجدنا "سلما الخاسر" يمدح المهدي بقصيدة يستهلها بالغزل ساخرا مستهزئا بالحداة الذين أسماهم بـ "النوافخ في البراري"، منها قوله[1] :

حي الأحِبّة بالسلام   أَعَلَى وداع أو لمـام
لم يبق منك ومنهم   غير الجلود على العظام
فإذا عزمت فأمض همّـ   ـك بين محمود وذامِ
ودع النوافخ في البُرى   يسبحن في بحر الظلام[2]

أما "عبد الله بن أبي أمية" فيدعو إلى ترك الأطلال وينهى عن ذكرها، مادامت قد اندثرت ومضى أهلها، فيقول :

دع دارسات الطلول   وكلّ ربع محيـل
ولا تصف دار سلمى   ذرها لكل جهـول
ولا تقل آل ليلى   قد آذنوا برحيـل [3]

من خلال هذه الشواهد القليلة نلاحظ تنوع ملامح التجديد والرفض في مقدمة القصيدة بتنوع دواعيه عند الشعراء، وقد شكلت تطورا كبيرا في مفهوم الشعر ابتداء من القرن الثاني الهجري.

و حاول الخلفاء إلى جانب النقاد الحفاظ على بناء القصيدة العربية[4]، من ذلك ما يروى عن هارون الرشيد الذي كان الشعراء يخشون الخروج عن عمود القصيدة الجاهلية فيما ينشدونه من مدائح في حضرته، ولما حاول "أبو نواس" ذلك في ذكاء وذكرٍ قليل للأطلال، فإنّه أظهر امتعاضه واستياءه وإن أتبع الشاعر ذلك المطلع الخمري بمديح جميل سر له الخليفة، من ذلك قوله[5]:

---

1 – في ديوان سلم الخاسر:حي المنابر ، جاء في الأغاني ومعاهد التنصيص:دخل سلم الخاسر على الرشيد فأنشده:

حَيِّ الأحِبَّةَ بالسلام. قال الرشيد: حياهُم اللهُ بالسلامِ.فقال: عَلَى وَداع أم مُقام.فقال الرشيد:حياهم الله على أي ذلك كان.فأنشده: لَمْ يَبقَ منكَ ومِنْهُم غيرُ الجلودِ على العظام فقال له الرشيد:بل منك.وأمر بإخراجه وتطير منه ومن قوله، فلم يسمع منه باقي الشعر ولا أثابه بشيء.

2 – نايف محمود معروف– سلم الخاسر شاعر الخلفاء والأمراء في العصر العباسي– دار الفكر العربي– بيروت ط1–2001 – ص109. (في الكتاب ملحق جمع فيه شعره)

3 – ابن المعتز – الطبقات – 323 .

4 – ينظر : ابن رشيق – العمدة – 196/1 وما بعده..

5 – أبو نواس – الديوان – 307.

لقد طال في رسم الديار بكائي   وقد طال ترددي بها وعنائي

فلما بدا لي اليأس عدَّيت ناقتي   عن الدار واستولى علي عزائي

وقد أحس "أبو نواس" بامتعاض الخليفة فلم يكرر المحاولة في حضرته فحسب، ولزم في مديحه الرشيد المذهب القديم، أما سائر أشعاره فإنّه كان يستهلها وفق مذهبه المحدث الجديد دون حرج ، ومن ذلك قوله في دعوة صريحة إلى نبذ البكاء على الأطلال[1] :

دع الأطلال تسفيها الجنوب   وتبكي عهد جدّتها الخطوب

وخل لراكب الوجناء أرضا   تَخُبُّ بها النجيبة والنجيب

وبتولي الأمين الخلافة على ما عرف عنه من خلاعة وتحرر وتحلل ومجون، وجد "أبو نواس" وأمثاله من الشعراء الفرصة السانحة لإخراج كوامن أحاسيسهم ومكبوتاتهم ، إلا أن خصوم الأمين أزروا عليه وأعلنوا مروقه، فاضطر إلى أمر "أبي نواس" بهجر مذهبه الجديد في مدحه والعودة إلى القديم المألوف، فلم يجد بدا، من الإدغان لأمر الخليفة، يقول في ذلك [2] :

أعر شعرك الأطلال والدمن القفرا   فقد طال ما أزرى به نعتك الخمرا

دعاني إلى نعت الطلول مسلّط   تضيق ذراعي أن أجوز له أمرا

فَسَمْع أمير المؤمنين وطاعة   وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا

هذا إلى جانب تعصب الرواة ضد الشعراء المحدثين، فلا يروون أشعارهم، ويحاولون الانتقاص من شعرهم ما أمكن ذلك، يقول "ابن الأعرابي": « إنما أشعار هؤلاء المحدثين أمثال "أبي نواس" وغيره مثل الريحان يُشم يوما ويَذوى فيُرمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا » ويقول مرة أخرى في شعر أبي تمام : « إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل »[3].

ولكن على الرغم من تلك المعارضة القوية من بعض الرواة والنقاد وولاة الأمر، وعلى الرغم من حرصهم على عمود القصيدة، فإن شعراء العصر العباسي استطاعوا الإفلات من تلك القيود وسايروا عصرهم وظروفهم وكانوا واقعيين إلى أبعد الحدود،

---

1 – المصدر نفسه- 31 ، وتنظر ص 27، 29، 45، 55 ، 63، 70...

2 – المصدر نفسه – 38.

3 – لمزيد من الاطلاع ينظر الموشح للمرزباني وأخبار أبي تمام لأبي بكر الصولي.

واستطاعوا أن يضيفوا تجربتهم الشخصية إلى تجارب سابقيهم، وقد ساعدهم على المضي في ذلك الدرب نقاد معتدلون نظروا إلى إبداعهم وقيموه ، نذكر منهم ابن رشيق المسيلي الذي يرى أن كل قديم هو جديد في عصره ، و أن المحدثين إنما يكملون مسيرة من سبقهم ، وقد خص القضية بباب من كتابه العمدة [1] هو" باب في القدماء والمحدثين"، وسبقه ابن المعتز الذي وقف كتابه "البديع "على شعراء زمانه (المحدثون والمولدون كما يسميهم أنصار القديم وسدنته) وما جادت به قرائحهم ، ومثله الصولي الذي وضع كتابين في الشعراء المحدثين أحدهما في أبي تمام والآخر في البحتري ومثله الجرجاني صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه[2].

3- **تغير بناء القصيدة والتحام أجزائها** : لأن شعر المحدثين الجديد يكاد لا يحتوي على مطولة – عدا المديح – ولأن تلك القطع تستغرق في الغالب غرضا واحدا من أولها إلى آخرها، فإنّ بناء القصيدة سيتغير حتما،فإذا كانت القصيدة العربية الجاهلية –النموذج– تعتمد بالدرجة الأولى على وحدة البيت، فإنّ القصيدة العباسية قامت على وحدة الموضوع، ولم يعد البيت فيها وحدة منفصلة قائمة بذاتها، وإنما أصبح جزءا من كل لا يمكن رفعه أو تقديمه أو تأخيره من القصيدة دون أن يصيب معناها ومبناها خلل واضح.

4- **تحول القصيدة العباسية إلى الطابع الشعبي**[3] : إن شعبية الشعر في العصر العباسي اتجاه طبيعي انتهى بالشعر إلى الاستجابة لكل مطالب الحياة الجديدة، فبعد أن كان الشعر يحمل الكثير من الملامح الأرستقراطية، إذ ظل إلى زمن بعيد يدور في فلك الطبقة الحاكمة ويعالج قضاياها وينشد في حضرتها، وجدناه يقفز

---

1 – ابن رشيق المسيلي– العمدة في محاسن الشعر, آدابه– تحقيق محمد قرقزان– دار المعرفة– بيروت– ط1-1408-1988- 1/197-201 .

2 – ينظر:– أبو بكر الصولي– أخبار أبي تمام– تحقيق محمد عبدو عزام وآخرون– دار الآفاق الجديدة– لبنان –ط3- 1980. – أخبار البحتري – تحقيق صالح الأشتر– دار الفكر – بيروت– 1964.

– القاضي الجرجاني– الوساطة بين المتنبي و خصومه – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي– المكتبة العصرية– بيروت–ط1– 1427- 2006 .

3 – ينظر : طاهر أبو فاشا – مقدمة الذين أدركتهم حرفة الأدب – دار الشروق – ط1 – 1401-1989 – ص 7-41.و ابن المعتز– طبقات الشعراء– 56، 61، 62، 171...

في العصر العباسي ليلتف إلى كل شرائح المجتمع الأخرى، وطرق حياتها وانشغالاتها دون أن يجد حَرَجًا في ذلك، فوجدنا الشعراء يصفون الروض والقصر والحان والخمر والأسد والنهر والعجوز والشاب والجارية والغلام ... ويصفون الفارس والخليفة والخباز وصانع الحلوى ... وكل ما يمكن أن تقع عليه عين الشاعر العباسي. بل و يصفون حتى الشيء المجرد و المعنوي الذي لا يدرك بالحواس.

5- **التجديد في موسيقى الشعر** : لم تكن الأوزان قيدا يقف أمام الشاعر القديم والشاعر العباسي المقتدر الموسوعي، صاحب الثقافة اللغوية الواسعة، ولكن تطور الحياة العربية على مر العصور والتطور الحضاري الذي عرفه العصر العباسي واختلاط المجتمع العربي بأجناس مختلفة تبعه بالضرورة هجران كثير من ألفاظ العربية البعيدة عن واقع الحياة لزوال دواعي استعمالها، كما تبعه ضعف الثقافة اللغوية عند الكثير من الشعراء المولدين، وعليه فإن هؤلاء الشعراء وجدوا في الأوزان عائقا يقف في طريقهم ويشكل قيدا ثقيلا يمنعهم من الانطلاق، وقد ظهر أثر ذلك في شعر المتأخرين، إذ بعد عن الابتكار والأصالة وأصبح يدور في فلك الشعر القديم، كما أن شيوع الغناء في المجتمع العباسي كله تحوّل بالشعر إلى الطابع الشعبي، وكان له أثر واضح، إذ انصرف الشعراء عن الأوزان الصعبة المعقدة، حتى في أكثر فنون الشعر جدية كالمديح والرثاء، وأقبلوا على الأوزان الرشيقة الخفيفة الملائمة للغناء، كالوافر والخفيف والرمل، والمتقارب والهزج، وراحوا يجزئون الأوزان الطويلة المعقدة، وذلك لتطور الذوق العام الذي أرهفته الحضارة ورقته المدنية، من ذلك قول مطيع بن إياس:

إكليلها ألـوان   ووجهها فتـان
وخالها فريـد   ليس له جيـران[1]

1 - جاء في الأغاني: عن حكم الوادي قال:أدخلني عمر الوادي على الوليد بن يزيد، وهو على حمار، وعليه جبة وشي ورداء وشي وخف وشي، وفي يده عقد جوهر، وفي كمه شيء لا أدري ما هو. فقال: من غناني ماأشتهي فله ما في كفي وما علي وما تحتي: فغنوه كلهم فلم يطرب؛ فقال لي: غن يا غلام،فغنيت:

إكليلها ألوان   ووجهها فتان
وخالها فريد   ليس له جيران
إذا مشت تثنت   كأنها ثعبان

كما تنسب إلى"الوليد بن يزيد"منظومة مثنوية[1] (مزدوجة) خطب بها الناس يوم الجمعة، منها قوله :

الحمد لله وليّ الحمـد أحمده في يسرنا والجهد

وهو الذي في الكرب أستعين وهو الذي ليس له قرين

وتنسب لـ "أبي نواس" مثنوية منها قوله :

يا راقد الليـل احذر من الويل

لا تأمن الدهرا إن له غـدرا

الدهر ذو صرفِ يرميك بالحتف

يا نفسي يا نفسـي لقد مضى أمسي

أما "أبو العتاهية فقد اشتهر بالنظم في هذا القالب الشعري، وفي ديوانه الكثير من المثنويات التعليمية وذلك أن هذا النمط راج في الشعر التعليمي أكثر من غيره، من ذلك قوله :

إنّا لفي اغترار بالليل والنهـار

حتى متى التواني ونحن في التفـاني

ما أوضح السبيلا وأسرع الرحيلا

أما ترى العيون ما تصنع المنون

والجدير بالذكر أن "قالب المتنوي" ضرب من النظم اخترعه الفرس وراج عندهم في المنظومات الطويلة كالملاحم والقصص، كما راج في الشعر الصوفي، وقد أسماه العرب "المزدوج".

ومن أشهر الأوزان القصيرة التي شاعت في الشعر العباسي ابتداء من القرن الثاني : مجزوء الكامل، مجزوء الرجز، البسيط المخلع، مجزوء الرمل، مجزوء المنسرح، الهزج، المضارع المقتضب، المجتث، الخبب، مجزوء المقتضب، مجزوء المتقارب. ويرى

و الشعر لمطيع بن إياس. والغناء لحكم الوادي، هزج بالوسطى. وفيه لإبراهيم رمل خفيف بالوسطى – فطرب وأخرج ما كان في كمه، وإذا كيس فيه ألف دينار، فرمى به إلي مع عقد الجوهر؛ فلما دخل بعث إلي بالحمار وجميع ما كان عليه.

1 – المثنوي عبارة عن قصيدة يستقل كل بيت منها بحرف روي، تأتي مصرعة الأبيات غالبا وهو قالب شعري فارسي استعمل بصورة واسعة في الشعر التعليمي. .

الباحث عبد الله الطيب المجذوب أن هذه البحور القصار لا تصلح إلا للدندنة والترويح عن النفس بجرس الألفاظ، والحق أنه لا يمكن تحديد لون من الشعر أو غرض ما لوزن بعينه لأن ذلك الاختيار يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة الشاعر ونفسيته وتكوينه وثقافته وبيئته وعناصر أخرى كثيرة.

كما أحيا الشعراء المحدثون أوزانا قديمة كانت نادرة في الشعر الجاهلي والإسلامي بحيث يعتبر النظم فيها ابتكارا من ابتكارات هذا العصر، من ذلك استحداثهم المقتضب والمضارع والمتدارك ففي المتدارك يقول"أبوا العتاهية"[1]:

هم القاضي بيت يطربْ　　　　قال القاضي لما عوتب

ما في الدنيا إلا مذنب　　　　هذا عذر القاضي واقلبْ.

وللشاعر سلم الخاسر محاولات في التجديد، إذ مدح "الهادي" مرة بقصيدة كل شطر فيها على وزن. وفيها يقول السيوطي : « وهو أوّل من عمله، ولم نسمع قبله شعرا على جزء جزء » نقتطف منها قوله:

موسى المطرْ غيث بكرْ　　　　ثم أنهمر ألوى المرر

كم اعتسر وكم قدر　　　　ثم غفر عدل السير[2]

وإلى جانب "المزدوج" أو "المثنوي" وجدنا في الشعر العباسي بعض الرباعيات، وهي قوالب من النظم تتكون كل وحدة منها من أربعة أشطر (لذلك سميت بالرباعي)، تتحد مصاريعه : الأوّل والثاني والرابع في القافية ويختلف عنها الشطر الثالث، وقد راج هذا الضرب أيضا في الشعر الفارسي وكثر استخدامه في المنظومات الصوفية والفكرية والفلسفية، منه في الشعر العباسي ما نسب إلى "بشار بن برد" [3]:

ربابٌ ربة البيت　　　　تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات　　　　وديك حسن الصوت

وله رباعية أخرى سجلها في هجاء خياط، وقد أفسد له ثوبا، يقول فيها :

---

1 - أبو العتاهية - الديوان – شرح وتقديم مجيد طراد- دار الكتاب العربي- ط 2 -1417-1997- ص 67.

2 - في العمدة:وكم قدر ثم غفر.

3 - شوقي ضيف- تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الثاني- 197.

خاط لي عمرو قباء ليت عينيه سواء
قلت شعرا ليس يُدرى أمديح أم هجاء[1]

هذا وقد أولع شعراء العصر العباسي بالقوافي الداخلية أو ما يعرف "بالموسيقى الداخلية" غير القافية المعروفة الموحدة بين أواخر الأبيات من ذلك قول "أبي نواس" في وصف مجلس شرب معتمدا في كل بيت ترجيع إيقاع معين[2] :

سلاف دنٍّ كشمس دجن كدمع جفن كخمر عدن
طبيخ شمس كلون ورس ربيب فرس حليف سجن
يا من لحاني على زماني اللّهو شاني فلا تلمني
أطلت عذلا فلا تقل لا يريد إلاّ السلو عني

وكان للوليد بن يزيد التزام أيضا في بعض قصائده بمثل هذه التقفية الداخلية، من ذلك قوله :

فأما الصباح فهمي القداح وخيل شواح جياد خضر

ومن الشعراء العباسيين من استحدث موسيقى داخلية أخرى ليس بواسطة التقفية وإنما بإيجاد جمل متناسقة موسيقيا ، هي أشبه بتقسيمات النثر وإيقاعاته الداخلية، كما نلاحظ ذلك في أبيات الشاعر "علي بن الجهم" :

أما ترى اليوم ما أحلى شمائله صحو وغيم وإبراق وإرعاد
كأنه أنت يا من لا شبيه له وصل وهجر وتقريب وإبعاد
واشرب على الروض إذ لاحت زخارفه زهر ونور وأوراق وأوراد.

ومن الشعراء من حاول الخروج إلى القافية بأسلوب آخر، إذ لم ينتهوا بمعنى البيت عند آخره وإنما وصلوه بالبيت الموالي له. وقد كان الدارسون القدامى يعدون ذلك عيبا عروضيا كبيرا ويسمونه تضمينا، من ذلك قول أبي العتاهية :

يا ذا الذي في الحب يلحى أما والله لو كلفت منه كما
كلفت من صب رخيم لَمَا لمت على الحب فذرني وما
ألقى فإني لست أدري بما بليت إلا أنني بينما
أنا بباب القصر في بعض ما أطوف في قصرهم إذ رمى

---

1 - بشار بن برد – الديوان – 38

2 - شوقي ضيف- تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الثاني- 199.

قلبي غزال بسهام فما   أخطا بها قلبي ولكنما ....

فكل أشطر هذه القطعة وكل أبياتها تحتاج إلى ما يكمّل معانيها في الأشطر و الأبيات الموالية، وعلى كل فإنّ هذه المحاولات التي عرفها العصر العباسي إنما كانت تمهيدا لتلك القفزة الموسيقية الشهيرة في عالم الشعر العربي والمتمثلة في ظهور فن جديد يعتمد على الكثير من التناغم الموسيقي ألا وهو فن الموشحات والمسمطات.

ومما يجب ملاحظته أن الكثير من مظاهر الثورة على القصيدة العربية والتجديد فيها لم يكن عفويا بريئا وإن كان بعضه استجابة لتطورات العصر، ذلك أن جل الذين حملوا لواءه يحملون انتماءات معادية متمردة على كل ما هو إسلامي أو حتى عربي.

الأغراض الشعرية المجددة :

أ - **تطور فن الوصف**[1] : لئن كان العصر الأموي عصر الغنى والفتوح واحتكاك الشعوب والقبائل والأديان فإن الناس لم يتمثلوا الحضارة الوافدة ولم يكتسوا بفضائلها، وإنما اكتفوا بالتمتع بنعيمها ظاهريا دون أن تتوغل إلى نفوسهم أو تغير في طباعهم فلبث أغلبهم بنفسية وعقلية بدوية وأثواب ومآكل ومشارب من بنات المدنية الجديدة ، أما العصر العباسي فقد كان عصر النضج والاختمار والتجديد، حيث تفاعل العباسيون مع معطيات الحضارة الجديدة ونعموا بالاستقرار، وانتقلت إليهم روح الفلسفة والصناعات فأثرت في طباعهم، وكان أول المتفاعلين مع الجديد الحضاري والثقافي والفكري الشعراء الذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الاتصال بواقعهم ووصفه ومعالجة قضاياه وتصوير أدق دقائقه. هذا وقد أثرت التيارات الفكرية المختلفة تأثيرا عظيما في دفع الشعراء عن مواضيع الشعر القديمة، والانصراف إلى وصف الحواضر وما فيها من مظاهر عمران، فكثر ذكر الرياض والحدائق والبرك ومجالس اللهو والشرب. كما كانت الحضارة العباسية نفسها حافزا على تطوير فن الوصف، فقد كانت حضارة زخرف وترصيع كثرت فيها النقوش والزخرف (في الستائر والمناضد والمزهريات والجواهر والحلي...)، وانتقل التفنن إلى الأطعمة والملابس والأفرشة...

1 - إيليا الحاوي- تطور فن الوصف- دار الكتاب اللبناني - بيروت-ط2- 1967 .

وهكذا أصبح العصر العباسي عصر التعقيد والمبالغات والتوليد والابتكار والتجديد، وقد أُخذ الشاعر بزخرفه وجديده، وأُعجب بفسيفسائه وملابسه وحدائقه وصناعاته وتأثر بتلك الحضارة في الصور والتشابيه والاستعارات ، لأن الشاعر عادة ما يستعير صوره من واقع بيئته، من ذلك تشبيه أبي تمام الحِلْمَ بالبرد الرقيق الحواشي بينما كان الجاهلي يشبهه بالطود الراسخ، كما أثرت الحضارة في أسلوب الوصف تأثيرا متعدد الوجوه، كان البديع أهمها جميعا بما يشتمل عليه من تعقيد للمعاني، وتوليد و إسراف في الجناس والطباق، وتنافر الأضداد حيث يقف المرء في القصيدة العباسية أمام سلسلة ممتدة من التشابيه والاستعارات والجناسات والطباقات والتوريات ...

ويضيع أحيانا بين هذه الأساليب الزخرفية ولا يكاد يدرك المعنى المراد إلا بعد جهد وعناء وإعمال شديد للفكر. وإن كان شعر الوصف قد اكتسب الكثير من حلل البديع وأصباغه فإنه أفاد من ذلك البريق الحضاري وذلك التطور المادي حيث راح الشعراء يخلعون على الصور الجامدة الحياة ويعطونها من الحالات النفسية حتى لتبدو للسامع كأنها بشر سوي، من ذلك قول إبراهيم بن المهدي :

ثلاث عيون من النرجس   على قائم أخضر أملس

وقول ابن المعتز في وصف روض وصفا بديعا طريفا جمع فيه بين بكاء السحائب وهي تجود عليه وضحك أزاهيره وهي تستجيب لها :

أَلَحَّتْ عليه كل طخياءَ دِيمةٍ   إذا ما بكت أجفانها ضحك الزَّهْرُ[1]

وهذا دليل على تطور الذوق العام فقد كان من الطبيعي أن نجد الوصف يهتم بمظاهر الحياة وبجانبها المادي بالدرجة الأولى ولكن بطريقة حيوية تضفي على تلك الجمادات من الحركة والحيوية والنشاط ما يجعلها حية،ولعل من أهم أساليب الشعراء في ذلك التشخيص الذي يرتفع بالموصوفات إلى درجة الآدميين، ويجعلها تؤدي أدوارهم

1 - ابن المعتز - الديوان - تحقيق ودراسة محمد بديع شريف- دار المعارف - مصر - ص 262 .

بامتياز ، يقول ابن أبي عيينة في وصف قصر "أوس" بالبصرة [1] وقصته مع باقي القصور:

فيا حسن ذاك القصر قصرا ونزهة   و يافيح سهل غير وعر ولا ضنك
بغرس كأبكار الجواري وتربة   كأن ثراها ماء ورد على مسك
كأن قصور الأرض ينظرن حوله   إلى ملك موف على منبر الملك
يدل عليها مستطيلا بحسنه   ويضحك منها وهي مطرقة تبكي

ومن مظاهر الحياة الجديدة التي أقبل شعراء بني العباس على وصفها وأولعوا بعناصرها "لعبة الشطرنج" التي شغلت الناس وملأت أوقات فراغهم من ذلك قول خالد القناص[2]:

أراد بلا ذحل أخ لي يودّني   ويعظم حقي دون كل ودود
محاربتي لم يأل أن بث خيله   وألقح حربا شبهها بوقود

وكان للجسور الممتدة على نهري دجلة والفرات موقعها من كاميرا عين الشاعر العباسي التي لم تكد تغفل صغيرة أو كبيرة، حقيرة أو عظيمة، فقد أبدع الشعراء في وصفهما وأجادوا من ذلك قول علي بن الفرج[3]:

أيا حبذا جسر على متن دجلة   بإتقان تأسيس وحسن ورونق
جمال وفخر للعراق ونزهة   وسلوة من أضناه فرط التشوق

وإذا قل وصف السفن في الشعر الجاهلي وشعر القرن الأول الهجري فقد كثر في الشعر العباسي كثرة فائقة كان سببها ألفة العرب للبحر، فقد خرجوا في الفتوح ، وأصبحوا ينتقلون عبره للتواصل مع باقي أطراف الخلافة الإسلامية المترامية ، كما خاضوه طلبا للتجارة، بل والنزهة ، وراحت يد الصناع تتفنن في صناعة زوارق خاصة بهذه الغاية القائمة على المتعة، من ذلك قول الحسين بن الضحاك في سفينة بنهر دجلة:

---

1 - قصر أوس بالبصرة : ينسب إلى أوس بن ثعلبة بن زفر بن وديعة بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن عكابة وكان سيد قومه وكان قد ولي خراسان في الأيام الأموية؛ وإياه عنى ابن أبي عيينة ...ينظر: ياقوت الحموي- معجم البلدان 356/4.

2 - تنظر قصة المأمون و أبيات خالد القناص في كتاب بغداد لابن طيفور .

3 - ينظر : تاريخ بغداد-116/1.

سكنّا إلى خير مسكونة تيمّمها راغب من أَمَمْ
كأن بها نشر كافورة لبرد نداها وطيب النَّسَمْ
مبرأة من وحول الشتاء إذا ما طمى وحله وارتكم

ومن لطائف ما سجله شعراء بني العباس في وصف السفن قصيدة لأبي نواس يصف فيها سفن الأمين التي أخذت أشكالا عديدة، مرة في صورة العقاب وأخرى في صورة الأسد وثالثة في صورة الدلفين ويختمها بمدح الخليفة الأمين والدعاء له، منها قوله:

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب [1]
فإذا ما ركابه سرن برًّا سار في الماء راكبا ليث غاب
أسد باسط ذراعيه يعدو[2] أَهْرَتَ الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذ رأوه على صو رة ليث يمر مرَّ السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحـ ـن تشقّ العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما اس تعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمين وأبقا ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه هاشمي موفق للصواب.[3]

ولا يقف وصف الشعراء العباسيين على مظاهر الحياة المادية، وإنما تعدى ذلك إلى وسائل الثقافة وأدواتها، فهم يصفون الكتب والخطوط والأقلام والقراطيس...من ذلك قول محمد بن بشير في وصف الكتب ورفقتها العذبة ومصاحبتها اللطيفة المفيدة[4]:

---

1 – صاحب المحراب:داود-عليه السلام- وهذا الكلام لا يليق في مقام النبوة! وهذه المغالاة ظاهرة بارزة في مدائح أبي نواس لخلفاء بني العباس.

2 – في الديوان:يغدو.وفي تاريخ الطبري وتاريخ الذهبي و سمط النجوم وتاريخ الخفاء للسيوطي:يهوي وفي محاضرات الأدباء:يسطو.

3 – أبو نواس – الديوان – – ص 314.

4 – الأبيات لمحمد بن بشير العدواني وردت في التذكرة الحمدونية وربيع الأبرار وبهجة المجالس وجامع بيان العلم وفضله.

هم مؤنسون وأُلاَّفٌ عنيت بهم فليس لي في أنيس غيرهم أربُ
لله من جلساء لا جليسهم ولا عشيرهم للسوء مرتقب
لا بادرات الأذى يخشى رفيقهم ولا يلاقيه منهم منطق ذَرِبُ
أَبْقَوْا لنا حِكَماً تبقى منافعها أخرى الليالي على الأيام وانشعبوا
إن شئت من محكم الآثار يرفعها إلى النبي ثقات خيرة نُجُبُ
أو شئت من سير الأملاك من عجم تنبي وتخبر كيف الرأي والأدب
حتى كأني قد شاهدت عصرهمُ وقد مضت دونهم من دهرهم حِقَبُ

أما القلم وحبره ورسمه بل وشكله الخارجي وطريقة إعداده ورعايته وتقويمه حتى يستقيم طيعا مجيبا لأنامل الكتاب، والدواة وتحضيرها[1] ،فقد أولع الشعراء بوصفهما في جميع المراحل والحالات، وسجلوا قصائد عديدة ، من ذلك قول المقنع الكندي:

قلم كخرطوم الحمامة مائل مستخفظ للعلم من علاّمه
يسم الحروف إذ يشاء بناءها لبيانها بالنقط من أرسامه
من صوفةٍ نفث المداد سخامه حتى تغير لونها بسخامه
يخفى فيقصم من شعيرة أنفه كقلامة الأظفور من قلامه
وبأنفه شق تلاءم فاستوى سقي المداد فزاد في تلآمه
مستعجم وهو الفصيح بكل ما نطق اللسان به على استكتامه
وهجاؤه قاف ولام بعدها ميم معلقة بأسفل لامه [2].

والملاحظ أن الوصف في العصر العباسي تعددت جوانبه واتسع ميدانه، إذ لم يعد مقصورا على أمور مشاهدة، وإنما تعدى ذلك واقتحم مجالات جديدة، فيها قدر كبير من ذاتية الشعراء، نحو وصف المكفوفين لمعاناتهم الشخصية وارتطاماتهم بالأشياء كلما أرادوا حراكا كما هي حال بشار بن برد ، كما عالج الشعراء تجاربهم

1 – اهتم بذلك أيضا كتاب العصر ووضعوا مؤلفات كاملة في فن الكتابة وصناعة الكاتب الجيد (ينظر أدب الكتاب للصولي، والإقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيد البطليوسي...)

2 – ينظر الحيوان.و التشبيهات لابن أبي عون.

في غياهب السجون، من ذلك ما سجله الشاعر "إبراهيم بن المدبر"[1] لما زج به في سجن سامراء فهو لا يشكو لأهله آلام السجن وإنما يصبرهم ويصبر نفسه إذ يراه مرحلة من مراحل بناء الشخصية وإعدادها للمهام الصعبة مستعينا في ذلك بتشبيهات مختلفة يشكل الحبس والاحتباس أهم مراحل النضج فيها والاكتمال ويقول:

هو الحبس ما فيه علي غضاضة وهل كان في حبس الخليفة من عار
ألست ترين الخمر يظهر حسنها وبهجتها في الحبس في الطين والقار
وما أنا إلا كالجواد يصونه مقومه للسبق في طي مضمار
أو الدرة الزهراء في قعر لجة فلا تجتلي إلا بهول وأخطار
وهل هو إلا منزل مثل منزلي وبيت ودار مثل بيتي أو داري
فلا تنكري طول المدى وأذى العدا فإن نهايات الأمور لأقصار
لعل وراء الغيب أمر يسرنا يقدره في علمه الخالق الباري

كما تطور وصف الطبيعة تطورا واضحا، حتى بدا جديدا في موضوعاته ومادته وشكله وصوره متناغما مع الحياة الجديدة، فقد وصف الشعراء المنازه والبساتين والأزهار والنخيل والرياحين وكل مظاهر الرقة والجمال، ووصفوا رحلات الصيد سواء الشخصية أو رحلات صيد الأمراء والولاة والخلفاء، وجعلوا منها فنا قائما بذاته عرف فيما بعد بـ "الطرديات"[2]، كما تابعت كاميرا الشعراء شتى مظاهر الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وغيرهما، من ذلك تلك المتابعة الدقيقة للشاعر ابن أبي كريمة لحياة القطن وهو بذرة ظل صاحبها يرعاها ويتعهدها بالسقي والعناية حتى استقامت وارتفعت واستوت وقدت منها الثياب، يقول:

وبقعة قد أجال الطرف نزهته حتى تميزها عن منبت القطن
سهيلة النجد لا خفض ولا شرف شيخ من الفرس مطبوع على الفطن
حتى انتقى حب مروى فورهه مثل اللآلئ لم يدنس من الدرن
حتى إذا بدّ زرع الماء ناهضها واستتبع الريح منها مائل الغصن

---

1 – ياقوت الحموي – معجم الأدباء – تحقيق إحسان عباس– دار الغرب الإسلامي – ط1– 1993– 102/1-104.

2 – تنظر على سبيل المثال طرديات أبي نواس– الديوان – 468- 503 .

أبدت طرائف ورد ثم أعقبها جوز تفرق بين الساق والفنن

تولد الجوز منها بعد عاشرة بيضاء تصرع منها محكم الحين

ومن ذلك أيضا ما سجله ابن الرومي في بعض الصناعات التي لفتت انتباهه فراح يرصدها بآلة تصويره الدقيقة متخذا من وصفه إحدى وسائل التسلية والرياضة والترويح عن النفس، محاكيا في كثير من قصائده اللقطة المشاهدة صانعا منها نموذجا آخر يكاد يطابق النموذج الأصلي ويجعل القارئ لتلك المقاطع يتخيل المشهد بكل تفاصيله وكأنه يراه ماثلا أمامه، يقول في وصف مهارة ودقة خباز رآه يدحوا الخبز في سرعة فائقة وينضجه في لمح البصر[1] :

ما أنسى لا أنسى خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر

مابين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قمراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

وللشاعر وقفة مشابهة مع قالي الزلابية وكيف يلقيها من بين أنامله لجينا أبيض فتستحيل شبابيكا من الذهب . ففي هذه الأبيات نلاحظ دقة فائقة وتفصيلا إذ هما من سمات الشاعر العباسي، بل إن نزعة الوصف عنده تغلب حتى على جلال الرثاء وهيبته، فهو يشخص أمام المحتضر ويترصد ساعة احتضاره بكل تفاصيلها ويجعل المتلقي وكأنّه يشاركه المشهد،يقول في رثاء ابنه الأوسط[2] :

ألح عليه النزف حتى أحاله إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد

وظل على الأيدي تساقط نفسه ويذوي كما يذوي القضيب من الرند

فيالك من نفس تساقط أنفسا تساقط در من نظام بلا عقد

فقد وضعنا الشاعر وجها لوجه أمام مشهد الاحتضار وجعلنا نعايش لحظاته الصعبة ونعيش معه ساعات النزيف وأثره على الصبي وتحوله بلونه من الحمرة إلى الصفرة ونشاركه مشهد تداول الأيدي على الفتى وهو يسلم روحه ولطول الحدث وثقله وجلاله نتخيل مع الشاعر أنها أنفس متتالية تتساقط الواحدة تلو الأخرى كما تتساقط حبات عقد انفرط الخيط الرابط بينها...و غير بعيد عن ابن الرومي نجد

1 – ابن الرومي – الديوان – تحقيق كامل الكيلاني د ت – 341.

2 – نفسه.30 – 31 .

عبد الصمد بن المعذل[1] ينقلنا إلى تجربة الحمّى التي يجعلها "ابنة للموت" ويرسم تفاصيل زيارتها وفعلها في جسمه :

وبنت المنية تنتابني غدوا وتطرقني سحره

كأن لها ضراما في الحشا وفي كل عضو لها جمره

ولعل من الروائع التي وصف فيها الشاعر العباسي مناوشة الحُمى لجسده العليل، ميمية المتبني التي يصف فيها "بنت الدهر" التي هي الحمى، وقد أقعدت جسمه الفراش حتى مله، وهو الذي كان يتجافى عنه، وتعددت بفعل تأثيرها غيبات فكره فكأنه كثير السُكر ولكنه إغماء الحمى لا غيبوبة الخمر، وهي لا تزور جسمه العليل إلا في الظلام وكأن بها حياء يمنعها من الظهور أمام الملأ، وإنها لتتفنن في تعذيب ذلك الهيكل بأنواع السقام حتى يضيق الجلد عن حملها، ويتفنن الشاعر في محاولات تسكين فورتها ليجعل منها ضيفة مبجلة معززة ويبسط لها من ثياب الخز الفاخرة والفرش المحشوة الوفيرة ولكنها تعافها جميعًا وتختار الدبيب في عظام شاعر لا يطردها عنه إلا انبلاج الصباح ،ولكنها تفارقه حزينة متدفقة المدامع ولعل مدامعها هي ذلك العرق الغزير الذي خلفته وراءها، ولشدة إلف الشاعر ووفائه وهو القائل :

خلقت ألوفا لو رحلت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا .[2]

صار ينتظرها ويرقب وقت مجيئها كأنّه مولّه مستهام بهذه المعذبة الفاتنة التي يعجب من تمكنها من النفاذ إلى أعماقه وجرحها على الرغم من بنات الدهر الأخر الكثيرات اللائي سبقن إليه ، وهن الشدائد والمحن اللائي تظافرن على تجريح نفسه الجريحة فلم يبقين فيه مكانا لسيف أو سهم، ولنصغ إلى هذه النفثات من ذلك البوح الذي يقدم لنا الوجه الآخر للمتبني اليائس الحزين الذي لم ينل غير المواعيد الكاذبات،ويضعنا أمام مشهد الإحباط الشديد الذي أصابه وأحدث هذه الصدمة المفاجئة للمتلقي بانتقاله من سمفونية الفخر والاعتزاز إلى معزوفة الشكوى والتوجع وإعلان الهزيمة وفضح الأحلام الفاشلة التي طالما منى نفسه ومنانا بقدرته على امتلاكها بل وتجاوزها فهو لا يقنع بما دون النجوم ، يقول:

---

1 – ينظر : طبقات ابن المعتز – 369 – 370، الأغاني – 266-258/13.

2 – المتنبي– الديوان– شرح البرقوقي– دار الكتاب العربي– 1407– 1986– 421/4 .

أقمت بأرض مصر فلا ورائي تخب بي الركاب ولا أمامي
وملني الفراش وكان جنبي يمل لقاءه في كل عام
عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام
وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها فتوسعه بأنواع السقام
كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها في غير شوق مراقبة المشوق المستهام
أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرّحًا لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام.[1]

وقد برع الشاعر العباسي في رسم أحواله النفسية و عواطفه الدقيقة ، من ذلك تجسيده لمشاعر الأبوة وما تنطوي عليه من رحمة وبر وحنان، كما هي حال ابن الرومي وبخاصة تعلقه الشديد بابنه الأوسط ، ورسم بعضهم مشاعر الغيرة الشديدة التي انحرفت إلى ما يشبه الحالة المرضية المستعصية كما هي حال الشاعر ديك الجن الحمصي الذي انتهى به الأمر إلى قتل زوجته و نفسه بعدها [2].

وعموما فقد تفوق الشاعر العباسي في وصف كل ما وقعت عليه عينه من مظاهر الحياة العباسية المادية وما اتصل بها من ترف المأكل والمشرب والملبس، ومن الأمطار والسحب والرياض والورود والأزاهير ، ومن القصور وما فيها وما حولها من بساتين، ومن الحيوان والطير والحشرات وفن الصيد وكل ما يتعلق به ، كما برع في وصف المعنويات والأحوال وكل ما يخطر له على بال من أمراض ومشاعر مختلفة كالألم والحزن و الفقد والغيرة وغيرها.

---

1 - المصدر نفسه- 272- 280.

2 - ينظر : سليم مجاعص- ديك الجن الحمصي –دار أمواج –لبنان ط1–2000 – ص57- 76 .و شوقي ضيف – العصر العباسي الأول –187. وديوان ديك الجن الحمصي – شرح وتقديم عبد الأمير مهنا- دار الفكر اللبناني- ط1- 1990 – ص5-12.

ب – تطور قصيدة المديح :

ركز الشاعر الجاهلي في مدائحه على المثل الخلقية الرفيعة في عصره، من كرم وشجاعة ووفاء وعفة وحماية للجار وحلم وحزم وإباء للضيم، ورجاحة للعقل ... حتى إذا جاء العصر الإسلامي أضاف شعراء المديح إلى هذه المثل مثالية الدين، فكانت المدحة الجاهلية والإسلامية تشتمل على مثاليات ذات أسس خلقية ودينية لتربية الشباب كما تشتمل على قضايا الدولة والأمجاد الحربية.

وربما تجلت كل تلك الملامح في قصيدة المديح العباسية في العصر الأول مع وجود محاولات جادة للتطور بمعاني المديح عمقا وسعة وتنوعا، وظلت محاولاتهم تزداد خصبا، دون أن يتخلصوا من مثالية المديح الموروثة، فإذا مدحوا خليفة أو واليا أو قائدا تمثلوا فيه الفضائل العربية والإسلامية وتمثلوا فيه العدل الذي يعصم الحاكم من الطغيان ويعصم الشعب من الفساد، وظل الشعراء يرتقون في أجواء المبالغة بدافع إرضاء الممدوحين والفوز بهداياهم حتى وقعوا في شركها ودخلوا دائرة الغلو الممجوج الذي ارتفعوا فيه بالممدوح إلى صفات قدسية نحو قول علي بن الجهم:

إمام هدى جلى عن الدين بعدما تعادت على أشياعه شيع الكفر

وقوله :

له المنة العظمى على كل مسلم وطاعته فرض من الله منزل

ومن المبالغات التي ركبها أبو نواس شططه في مدح الأمين الذي تعرفه العامة والخاصة، حيث جعله ينازع المصطفى صلى الله عليه وسلم وينافسه ويدخل المصطفى معه في ذلك الصراع والتنافس على "الشبه" بفعل "تنازع" الذي يدل على المشاركة وينتهي إلى الندية وزعم المطابقة ومحو التشابه الذي يقتضي وجود مشبه به (هو الرسول ص) ومشبه يقف دونه في المرتبة وهو الخليفة العباسي الأمين يقول[1] :

تنازع الأحمدان الشبه فاشتبها خَلقا وخُلقا كما قد الشراكان

اثنان لا فصل للمعقول بينهما معناهما واحد والعدة اثنان

وقوله مساويا بين تقبيل يد ممدوحه وتقبيل الحجر الأسود، ومنزلقا إلى تفضيل ممدوحه على كل من يسعى على قدم على وجه الأرض :

يا ناق لا تسأمي أو تبلغي ملكا تقبيل راحته والركن سيان

1 – ينظر :حسين عطوان – الزندقة والشعوبية – 84.

هو الذي قدر الله القضاء له ألا يكون له في فضلة ثان
هو الذي امتحن الله القلوب به عما تجمجم من كفر و إيمان
محمد خير من يمشي على قدم ممن برى الله من إنس ومن جان

ونمضي مع أبي نواس في شططه وغلوائه الممجوجة، لنقف عند أبيات له في الرشيد منها[1]:

لقد اتقيت الله حق تقاته و جهدت نفسك فوق جهد المتقي
وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق

و يقول في المعنى نفسه[2] :

حتى الذي في الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

وقد عاب عليه المبرد هذه المبالغات لغلوّها الشديد كما عاب عليه قوله وقد جعل المصطفى – صلى الله عليه وسلم – تابعا لممدوحه:

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره.

فقال : « وهو لعمري كلام مستهجن ... لأن حق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يضاف إليه ولا يضاف إلى غيره ».

أما في العصر العباسي الثاني فإننا نجد قصيدة المديح تتحول إلى وثيقة تاريخية هامة في قالب أناشيد انتصارات رائعة مُخلدة لبطولات الخلفاء والأمراء وقادة الجند ولعلها تمثل نموذجا رائعا لأدب الجهاد الذي خفت صوته شعريا وهمشته الدراسات النقدية، من ذلك قول البحتري في والي أرمينية يوسف بن محمد الثغري بعد أن أخمد ما بها من ثورات متتالية :

هو الملك المرجو للدين والعلا فلله تقواه وللمجد سائره
له البأس يُخشى والسماحة ترتجى فلا الغيث ثانيه ولا الليل عاشره
كسرتهم كسر الزجاجة حدة ومن يجبر الوهي الذي أنت كاسره

ويكفي أن نذكر من تلك القصائد الغرر والوثائق التاريخية المخلدة، بائية أبي تمام في المعتصم وقد صحبه في إحدى معاركه مع الروم "فتح عمورية " وشهد بنفسه وقائعها وعايش لحظة الانتصار العظيمة بعد أن كاد المنجمون أن يبثوا الشك ويزرعوا

1 - أبو نواس – الديوان - 306.
2 - المصدر نفسه - 310.

الوهن في صفوف المسلمين، لولا شجاعة المعتصم وحكمته ، يقول ممهدا بمقدمة حكمية تنسجم و طبيعة الصراع الإسلامي المسيحي ومشاهد النصر و البطولة[1] :

السيف أصدق إنباء من الكتب　　في حدّه الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف　　في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة　　بين الخميسين لا في السبعة الشهب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به　　نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له　　وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت　　منك المنى حفلا معسولة الحلب
لقد تركت أمير المؤمنين بها　　للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى　　يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت　　عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة　　وظلمة من دخان في ضحى لجب
تدبير معتصم بالله منتقم　　لله مرتقب في الله مرتغب
لم يغز قوما ولم ينهد إلى بلد　　إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغزا　　من نفسه في جحفل لجب
رمى بك الله برجيها فهدمها　　ولو رمى بك غير الله لم تصب

وهي قصيدة مفعمة بالصور الحماسية الجهادية، ما دام الأمر بين المسلمين والمشركين، وكأنها في انتصارها وتدفقها تعود بنا إلى الأيام الأولى لمعارك المسلمين مع الشرك والمشركين، وهو نمط جديد جمع فيه الشاعر العباسي بين المدح والحماسة، وغير بعيد عن هذه الرائعة التمامية ميمية المتنبي في قلعة الحدث "بالأناضول" والتي صحبه بدوره فيها فكانت قصيدته خير موثق للحادثة، وقد أضفى عليها من شعره الحكمي فغدت في الروائع الخوالد[2] :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم　　وتأتي على قدر الكرام المكارم

---

1 – أبو تمام – الديوان – شرح شاهين عطية – دار الكتب العلمية – بيروت – ط3 – 2003 – 1424 – ص 18-24.

2 – المتنبي- الديوان – شرح البرقوقي – دار الكتب العربي – بيروت – 1407-1986 – 94/4-108.

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم
يكلف سيف الدولة الجيش همه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم
كأن بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم
طريدة دهر ساقها فرددتها على الدين بالخطى والدهر راغم
إذا كان ما تنويه فعلا مضارعا مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ونأتي إلى النهاية حيث نجد المتنبي قد بلغ بها أوجها، فلا نكاد نرى القصيدة إلا دررا منثورة ألقاها سيف الدولة بين يدي الشاعر لينظمها ويحولها إلى عقد متناغم الألوان متناسق الأشكال ويتراءى لنا سيف الدولة سيفا مشرعا مرفوعا في وجه الأعداء، ولا عاصم لهم منه، به يتحقق المجد ويعلو أمر الإسلام والمسلمين.

لك الحمد في الدر الذي لي لفظه فإنك معطيه وإني ناظم
ألا أيها السيف الذي ليس مغمدا ولا فيه مرتاب ولا منه عاصم
هنيئا لضرب الهام والمجد والعلا وراجيك والإسلام إنك سالم
ولم لا يقي الرحمن حديك ما وقى وتفليقه هام العدى بك دائم

هذا وتخالط مدائح المتنبي مفاخره ونفسه العظيمة فلا نكاد نرى غير العظيمين الشاعر والممدوح من ذلك قوله في سيف الدولة عند بنائه مرعش سنة 341هـ [1]:

ومن تكن الأسد الضواري جدوده يكن ليله صبحا ومطعمه غصبا
ولست أبالي بعد إدراكي العلا أكان تراثا ما تناولت أم كسبا
فرب غلام علم المجد نفسه كتعليم سيف الدولة الطعن والضربا

1 - البرقوقي - شرح ديوان المتنبي - 1/185-186.

وقوله :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم[1]

ومن الشعراء من أرخ بمدائحه لمناسبات دينية كالحج وبخاصة وقفة عرفات المبشرة بعيد الأضحى، وكعيد الفطر المهلل بعد فريضة الصيام، نذكر من ذلك قول البحتري في تهنئة المتوكل بعيد الفطر [2] :

ذكروا بطلعتك النبي فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا

حتى انتهيت إلى المصلى لابسا نور الهدى يبدو عليك ويظهر

... فلو أن مشتاقا تكلف غير ما في وسعه لسعى إليك المنبر

الله أعطاك المحبة في الورى وحباك بالفضل الذي لا ينكر

وإن جرت كثير من مدائح العصر العباسي على نمط القصيدة القديمة وبخاصة في اعتمادها على المقدمة الطللية أو الغزلية...فقد وجدنا عند كثير من شعراء هذا العصر بديلا فنيا جديدا يمكن تسميته بالمقدمة الحكمية، وربما أرجعنا ذلك إلى طبيعة العصر وما راج فيه من علوم منها الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وما كانت تمتطيه هذه العلوم من أساليب عقلية مقنعة ولعل المثالين السالفي الذكر لأبي تمام والمتنبي (السيف أصدق/على قدر أهل) خير دليل على مثل هذه المقدمات الواقعية الجديدة المواكبة لروح العصر والموائمة لنفس الشاعرين ولا تكاد الحكم تفارقنا في ثنايا قصيدة المديح العباسية وبخاصة عند المتنبي من ذلك قوله[3] :

فحب الجبان النفس أورده البقا وحب الشجاع الحرب أورده الحربا

ويختلف الرزقان والفعل واحد إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

وقوله :

فما الحداثة عن حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

---

1 – المصدر نفسه – 83/4- 85 .

2 – ينظر البحتري – الديوان –قصيدة "الله مكن للخليفة جعفر"

3 – ينظر الديوان – 190/1. 29/1. 264/4-465، 271.

وقوله :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه   وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته   وأصبح في ليل من الشك مظلم
لمن تطلب الدنيا إذ لم ترد بها   سرور محب أو مساءة مجرم

وقوله :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره   إذا استوت عنده الأنوار والظلم ...

والحق أن المتنبي أرسى مجموعة من التقاليد الفنية للقصيدة العربية وابتكر مصالحة فنية واعية بين القيم الجمالية الموروثة والمحدثة وأصّل لأغراض شعرية كثيرة تأتي في مقدمتها جميعا قصيدة المديح، وإن وجدنا تفاوتا بين الشعراء في هذا المجال، يرجع بالدرجة الأولى إلى ثقافة كل واحد منهم ومحيطه وميوله وشخصيته، حيث نلاحظ على سبيل المثال غلبة المبالغة على مدائح أبي نواس ونزوعها نحو القصيدة التقليدية وإن كان الشاعر قائد المحدثين ورائدهم في الموضوعات الأخرى، كما نلاحظ النزعة البديعية عند أبي تمام، بينما يطغى على مدائح المتنبي الطابع الحكمي والفلسفي، وعلى شعر ابن المعتز الطابع الوصفي البديعي وهكذا نجد أنفسنا ونحن نتأمل قصيدة المديح العباسية أمام مدارس فنية متنوعة.

3 - **تطور فن الهجاء**[1] :

لا يسعنا المجال للحديث عن جميع مظاهر الهجاء التي عرفها العصر العباسي وإنما سنكتفي بالتركيز على ضرب جديد في الهجاء هو ذلك الرسم الكاريكاتوري الضاحك الساخر الذي أصبح هواية وميزة تكاد لا تغادر كثيرًا من شعراء العصر العباسي تكون أحيانًا طلبًا للهو والمزاح وأخرى تكون ناتجة عن رفض للواقع ونقد لمظاهر الفساد، وثالثة عن حقد دفين ولعنات كامنة، بل إننا أصبحنا نجد في العصر العباسي ميلا عاما إلى الفكاهة والتندر والرغبة في إضحاك الآخر وإشراكه في الأمر.

وعرف العصر العباسي قفزة واسعة في الوصف الكاريكاتوري بعيدًا عن تعقيدات الحضارة وزخرفها وربما عددنا بشار بن برد من أوائل المؤسسين لهذا الاتجاه[1]من ذلك قصة الحمار الذي مات من العشق ، يقول فيها على لسانه :

---

1 – إيليا الحاوي – تطور فن الهجاء وتطوره عند العرب– دار الثقافة– لبنان– 439– 620 .

سيدي خذ بي أتانا عند باب الأصبهاني

تيمتني ببنـان وبدل قد شجاني

تيمتني يوم رحنا بثناياها الحسان

وبغنـج و دلال سل جسمي وبراني

ولها خد أسيـل مثل خد الشيفراني

فلذا مت ولو عشت إذن طال هواني[2]

ولعـل أبـرز شـاعر مثـل هـذا الضـرب مـن الرسـم ابـن الرومـي بـدوافع نفسـية واجتماعية واقتصادية وكاد يتخصص فيه إلى جانب شعراء آخرين في مقدمتهم بشار بـن بـرد الـذي كانـت تدفعه إلى ذلـك شعوبيته حينًـا وعمـاه في أغلـب الأحيـان، وإن غلـب على شعره الهجـائي الفحـش والإقـذاع فإننـا نجـد في بعـض قصـائده شـيئًا مـن السـخرية والرسـم الكاريكـاتوري المضـحك مـن ذلـك قصيدة سـجلها في وصـف نعجـة هزيلة أهـداها لـه فـتى مـن بني منقـر وقـد كـان يهـدي لـه كـل عيـد أضـحى نعجـة سمينة مكتنزة، يقول ساخرًا :

وهبت لنايا فتى منقر وعجل وأكرمهـم أولا

وأبسطهم راحة في الندى وأرفعهم ذروة في العلا

عجوزًا قد أوردها عمرها وأسكنها الدهر دار البلى

سلوحًا توهمت أن الرعا ء سقوها –ليسهلها– الحنظلا

فلو تأكل الزّبد بالنرسيا ن وتدمج بالمسك والمندلا

لما طيّب الله أوّاحهـا ولا بلّ من عظمها الأنحلا

وضعت يميني على ظهرها فخلت حراقفها جندلا

وأهوت شمالي لعرقوبها فخلت عراقبها مغـزلا

فقلت أبيع فلا مشتر أرجي لديها ولا مأكلا

أم أشوي و أطبخ من لحمها وأطيب من ذاك أكل السلا

إذا ما أمرت على مجلس من العجب سبح أو هللا

---

1 – عرف العصر الأموي نوعا من الرسم الساخر، اقتصر على شعر النقائض، وقد يرع فيه جرير خاصة ، وقد اتسع أمره في العصر العباسي إذ لم يعد حكرا على الهجاء ، فهو يتأتى للشعراء عفويا تلقائيا .

2 – بشار بن برد– الديوان – 617.

رأوا آية خلفها سائق يحث   وإن هرولت هرولا

ولولا استحاؤك خضبتها   وعلقت في جيدها خلخلا

فجاءتك حتى ترى حالها   وتعلم أني بها مبتلى

سألتك لحما لصبياننا   فقد زدتني بها عيلا

فخذها و أنت بنا محسن   و ما زلت في محسن مجملا[1].

ففي هذه القصيدة يتمثل لنا بشار متلهيا مقهقها ضاحكا ومضحكا من حوله، ملما بالصور الكاريكاتورية المضحكة الماسخة للحقائق والتي طالما تذكرنا بصور ابن الرومي الكثيرة في هذا المجال، وفي تلك الصور الضاحكة لم يكن غرض الشاعر من ورائها أذى المهجو بقدر ما أراد إضحاك الحاضرين وتسليتهم، كقول الشاعر أبو دلامة وقد خرج رفقة الخليفة المهدي وعلي بن سليمان في رحلة صيد، حيث رمى المهدي فأصاب ظبيا بينما أصاب سهم ابن سليمان كلبا من كلاب الصيد:

قد رمى المهدي ظبيا   شك بالسهم فؤاده

وعلي بن سليما   ن رمى كلبا فصاده

فهنيئا لهما كـــل امرئ يأكل زاده

وغير بعيد عن هؤلاء الشاعر أبو نواس، فله صور هجائية تنحو منحى الفكاهة والضحك، من ذلك قوله في قدر بني رقاش ، وقد اشتهروا بالبخل ، وآلى هو ألا يكف عنهم سهام سخريته[2] :

قدر الرقاشي مضروب بها المثل   في كل شيء خلا النيران تبتدل

تشكو إلى قدر جارات إذا التقتا   اليوم لي سنة ما مسني بلل

ويقول في القدر نفسها في صورة كنائية لا تختلف عن سابقتها، مقارنا بينها وبين قدور سائر الناس، فبينما تظل هي زهراء صافية بعيدة عن أذى النار —لبخل أصحابها– يصيب قدور الناس جميعا سواد النار لأنها تبذل فيما تبذل فيه :

رأيت قدور الناس سودا من الصلى   وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر

تبين في مخراشها أن عودها   سليم صحيح لم يصبه أذى الجمر

---

1 – المصدر نفسه 575.

2 – أبو نواس – الديوان – 399.

ويمضي في ضحكه وإضحاكه مع الرقاشيين وفي توليد المعاني من فكرة واحدة وهي البخل، فيرى أن سبب موتهم الوحيد هو الجوع بخلا وتقتيرا، ويمعن في التهكم من ذلك بأن يجعل موتاهم يعودون إلى الحياة بمجرد إشمامهم الرغيف يقول:

أمات الله من جوع رقاشا   فلولا الجوع ما ماتت رقاش

ولو أشممت موتاهم رغيفا   وقد سكنوا القبور إذا لعاشوا!

فإذا جئنا إلى ابن الرومي وجدناه يفرغ من معاناته وأحزانه صورا هازئة ساخرة مضحكة كأنه يحاول أن يتسلى ويسلو من خلال تلك الصور، فهو يهجو الناس بالعيوب الخُلُقية كالجبن والبخل والتقاعس ولكن هجاءه بالعيوب الخَلقية كالعرج والاحديداب والقبح ...هو الغالب، فقد كان له "عصب خاص" يتحسس به مظاهر النقص، ولعل شعوره بالنقص الدائم ومعاناته الحادة من أبرز العوامل التي دفعته إلى تقصي علامات الضعة في الناس والمبالغة في وصفها وتقليبها في وجوه شتى ليمسخ عالمهم، ويحيله عالما مختلا كأعماقه الغاضبة الثائرة القلقة المضطربة الحزينة، بل إنه كثيرا ما اختلق لهم ما ليس فيهم توهما وإفراغا لمكبوتات نفسه، وهو في الحالين ينصرف إلى العبث بما رآه أو اختلقه، مبدعا في تصويره، ممعنا في تشويهه حتى يميته.

من وقفاته مع العيوب الخلقية تلك الوقفة مع عيسى بن منصور التي هجاه فيها بالبخل الشديد حتى أنه ليضن على نفسه ويتمنى لو أنه يتنفس من منخر واحد تقتيرا واقتصادا، يقول[1] :

يقتر عيسى على نفسه   وليس بباق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره   تنفس من منخر واحد

ومن ذلك أيضا قوله يهجو أحد معاصريه وينسب إليه كل المخازي حتى أن سبل الهجاء قد أعيته في ذلك الرجل، ومهما تفتقت موهبته الشعرية فإنه يبدو مقصرا في وصف عيوبه والإحاطة بها، لذلك يتردد في الإقبال على هجائه أو الاعتذار عنه لاستحالته وتعذره على الشعر:

أخالد أعييت الهجاء وفنه   فقولي – وإن بلغت فيك– مقصر

وتا الله ما أدري أ أسكت خاسئا   حسيرا برغمي، أم أقول فأعذر

أرى كل لؤم في اللئام، فإنما   عصارته من عودك السوء تعصر

---

1 – ابن الرومي – الديوان – 375.

لؤمت فلو كنت السماء لأمسكت حياها، وأمسى جوها وهو أغبر
نطقت فلو ماسست كعبة مكة بثوبك حاضت حيضة لا تطهر
جمعت خلال الشر والضر كلها وأنت بها أولى وأحرى وأجدر
تحالفك السوءات حيا وميتا وتبعث – مقرونا بها – حين تحشر

ويبدو الشاعر في أهاجيه مستعينا بما راج في العصر من منطق وفلسفة وجدل وقدرة فائقة على الحجاج باستعمال القياس وغير ذلك من أساليب المتكلمين، من ذلك هذا القياس العجيب بين البخيل المفطور على البخل فلا يزيده المال إلا انقباضا وإمساكا وبين الحجارة التي لا يزيدها الماء إلا صلابة يقول:

إذا غمر المال البخيل وجدته يزيد به يبسا وإن ظن يرطب
وليس عجيبا ذاك منه فانه إذا غمر الماء الحجارة تصلب

ويصبح المجد وما تصنعه المناصب السياسية التي لم ينل الشاعر منها نصيبا ، أشبه بالسحر أو الكيمياء وما راج عنها في عصره من تحول بالمعادن من أبخسها وأذلها إلى أغلاها، يقول في حسرة وألم على هذه الكيمياء التي لامست الكثيرين وأغفلته :

إنما المجد كيمياء إذا ما مس كلبا أحاله إنسانا!!

ويظل ابن الرومي متربصا بنقائص الناس وعوراتهم، مبالغا مضخما مشغولا، شغله المغنون وأزعجه أداء بعضهم فهجاهم هجاء مريرا ساخرا نالت منه المغنية شنطف حظا وافرا وشاركتها في ذلك دريرة، ولفتت انتباهه اللحى الطويلة فكانت له معها وقفات عديدة، وسجل فيها قصائد مختلفة توحي لقارئها أن في نفس الشاعر شيئا تجاه شخص بعينه، وربما عددنا غريمه الشاعر البحترى سبب كل ذلك الألم ، فقد انفتحت له أبواب الملوك والغنى والجاه التي انغلقت دون ابن الرومي – وقد كان صاحب لحية سائبة مغبرة...– ومن سوء الحظ أنه كان صاحب لحية طويلة، لم يستطع الشاعر أن يتخلص من صورة ذلك المنافس المتفوق إبداعا وحسن حظ ، فكلما رأى شبيها له (في طول لحيته) تذكر ذلك الموقف فراح يدمغه بتلك المكبوتات التي لا ذنب له فيها، من ذلك قوله في صاحب لحية طويلة كثيفة[1]:

إن تطل لحية عليك وتعرض فالمخالي معروفة للحمير
علق الله في عذاريك مخلاة ولكنها بغير شعير

1 – المصدر نفسه – 71.

لو غدا حكمها علي لطارت في مهب الرياح كل مطير
لحية أهملت فسالت وفاضت فإليها تشير كف المشير
ما رأتها عين امرئ، ما رآها قط إلا أهلّ بالتكبير
فاتق الله ذو الجلال وغير منكرا فيك ممكن التغيير
أو فقصر منها فحسبك منها نصف شبر علامة التذكير

فالشاعر في هذه القصيدة لا يجد ما يشبع نهمه الشديد وميله العارم إلى السخرية والتحقير غير المخلاة شبيها بتلك اللحية، وما يناسب المخلاة (الشعير-الحمير) وهي ألفاظ غاية في الزراية والقبح. وفي موقف مماثل يقف ابن الرومي موقف المرشد الناصح، فيشير على كل من يصادف في طريقه صاحب لحية طويلة كثيفة أن يقطع عنقه، فإذا خاف الله أو خاف من سطوة صاحبها فليكتف بنتفها شعرة شعرة ويكفي ما في ذلك من ألم وسخرية، يقول[1] :

إذا أنت صادفت أخا لحية وقد جللت من كبر صدره
فاقبض بيسراك على أصلها وضع على حلقومه الشفره
فإن خشيت الله في مثله وخفت منه سطوة مره
فثب إلى عثنونه ناتفا فات عليه شعرة شعره

ومن المظاهر الخلقية(بفتح الخاء) التي وقعت عليها كاميرا ابن الرومي صاحب أنف طويل، هو المؤذن "دبس" الذي صادف أن كان صاحب صوت قبيح، أبدى الشاعر تذمره منه فراح ينكر عليه كل شيء بما في ذلك صوته وهو يؤذن للصلاة، يقول[2]:

وكأن صوتك حين تصدح صوت رعد يرجس
فإذا صدحت مؤذنا كادت تموت الأنفس
وإذا جلست أذى خشامك من يضم المجلس
وإذا نهضت كبا بوجهك للجبين المعطس
فالأنف منك لعظمه بدا لرأسك يعكس
حتى يظن الناس أنك في التراب تفرس

1 – المصدر نفسه – 287.
2 – المصدر نفسه – 90-91.

إن كان أنفك هكذا فالفيل عندك أفطس

وإذا جلست إلى الطريق ولا أرى لك تجلس

قيل السلام عليكما فتجيب أنت ويخرس

فهو في هذا المقطع يميل إلى الوصف المشوه، فيشبه أنف المهجو بالرأس، وجعل المارين عليه يتخيلونه شخصا ثانيا معه فيحيون الاثنين، فيجيب الإنسان ويخرس الآخر(الأنف)، إن ملامح المؤذن تنحسر جميعا وتختفي أمام عين ابن الرومي، ولم يبق أمامه غير الأنف الذي جاء له بصور كثيرة تستثير الضحك والقهقهة لغرابتها وإمعانها في الغلو، حتى غدا ذلك الأنف أسطورة، فقد جعل حجم الأنف مضاهيا للرأس ثم تطور بالصورة حتى غدا الفيل أمامه – بخرطومه المعروف لا أنف له– ليجعل منه بعد ذلك شخصا ثانيا يوازي صاحبه فيخطئ الناس ويحيونه كصاحبه ولكنه أخرس لا يجيب التحية ...

والشاعر عبر هذه المبالغة الفنية يعبر عما يفيض به شعوره من تبرم تجلى في غلوه الشديد، ثم إن المبالغة في هذه الصور الكاريكاتورية وليدة التندر الذي يسرف بالابتعاد بين طرفي المقابلة حتى تأتي الصورة كثيرة التشوه بعيدة كل البعد عن الواقع الحقيقي، وهذا هو الفرق بين الوصف العادي والوصف الساخر.

ومن ابتداع ابن الرومي في المعاني وخلقها من لا شيء لتغدو صورا مضحكة، متتالية تكاد لا تنتهي، قوله يصف خادما كسولا أكولا شرها، أرسله في شراء شيء يقدم للضيف، فعاد صفر اليدين بعد طول غياب[1] ، أو ببعض النوى بعد أن أكل رطبه أو بقشر رمانة أتى عليها ، يقول:

لي خادم لا أزال أحتسبه يغيب حتى يرده سغبه

نرسله لاشتراء فاكهة فقصرنا أن تجيئنا كتبه

كم قال ضيفي وقد بعثت به هيهات يوم الحساب منقلبه

وخلته قد سما إلى كرم رضوا ن، لكي يجتني لنا عنبه

ثم أتاني وقد طما غضبي عليه والضيف قد طما غضبه

فقال هاكم وليس في يده إلا نوى، كان مرة رطبه

أو عجم رمانة وقشرتها بغير ماء لقد خلا عجبه

1 – المصدر نفسه – 283.

يبطئ حتى أكاد أحسبه   صادف تيسا، فظل يحتلبه
أو أعرض الردم دون حاجته   أو لقي الليث هائجا كلبه
هل مشترٍ؟ والسعيد بائعه   هل قابل؟ والسعيد من يهبه
أساء بالمسلمين جالبه   لا كان من جالب ولا جلبه

والشاعر في هذه القصيدة ينزع منزعا تصاعديا تتراكم أمواجه بعضا على بعض وبيتا إثر بيت حيث ذكر غيبته ثم أشار إلى أن من يقوم بالأسفار النائية « حسبنا أن تجيئنا كتبه »، ثم ضاعف المعنى بأن جعل عودته مستحيلة « هيهات يوم الحساب منقلبه » وجعله قد قصد إلى جنان الرضوان « قد سما إلى كرم رضوان »، وفي الشطر الثاني أشار إلى أوبته بعد غياب طويل لا يحمل إلا أسوء الثمار، فإذا أوبته أشد إثارة للحنق من غيبته الطويلة وإذا به يعرضه للبيع وهو موقن من إخفاقه في ذلك، فيجعله هبة والسعيد الحظ هو الواهب ، ومن أهاجيه الكاريكاتورية قوله في هجاء أكول شره :

وأما يد البصري في كل صفحة   فأقلع من سيل، وأغرق من رفش
يبادر في قلع الطعام كأنه   وكيل يتيم أو مريب على فيش
أ أوعده بالشعر وهو مسلط   على الإنس والجنان والطير والوحش
ألم أره ينعى إلى كل صاحب   ضروسا له تأتي على الثور والكبش
يخبر عنها أن فيها تثلما   وذلكم أدهى وآكد للجرش

ولم يتورع ابن الرومي حتى عن التعرض لأصحاب العاهات الجسدية، مع علمه أنهم لا يملكون من أمرها شيئا، من ذلك قوله في وصف أحدب:

قصرت أخادعه وغار قذاله   فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة   وأحس ثانية بها فتجمعا

هذا ولم يفت ابن الرومي في هجائه ما كانت تعرفه الحياة العلمية من قضايا ولعل أخطر ما عرفه الشعر في عصره قضية السرقات الشعرية والانتحال، فهاهو يهجو معاصره البحتري ويتهمه بالسرقة، والسطو على شعر غيره ويطالب بمحاكمته وإقامة الحد عليه ككل الذين يقام عليهم حد السرقة يقول :

الحظ أعمى ولولا ذاك لم تره   للبحتري بلا عقل ولا حسب
قبحا لأ شياء يأتي البحتري بها   من شعره الغث بعد الكد والتعب
وقد يجيء بخلط فالنحاس له   وللأوائل ما فيه من الذهب

سمين ما نحلوا من هنا وهنا　　　والغث منه صريح غير مجتلب
إن الوليد لمغورا إذ اتكلت　　　نفس الجبان، بعيد الهم والسرب
عبد يغير على الموتى فيسلبهم　　　حر الكلام بجيش غير ذي لجب
ما إن تزال تراه لابسا حللا　　　أسلاب قوم مضوا في سالف الحقب
قل للعلاء أبي عيسى الذي نصلت　　　به الدواهي نصول الأل في رجب
أيسرق البحتري الناس شعرهم　　　جهرا وأنت نكال اللص والريب
وتارة يترز الأرواح منطقه　　　فالخلق ما بين مقتول ومغتصب
والحكم فيه مبين غير ملتبس　　　لو ريم فيه خلاف الحق لم يصب
إذا أجاد فأوجب قطع مقوله　　　فقد دهى شعراء الناس بالحرب[1]

وله مع علماء عصره مواقف طريفة ، وبخاصة منهم علماء اللغة ، فقد مدح المبرد ثم هجاه وهجا نفطويه والأخفش الأصغر، والمفضل الضبي وغيرهم ...من ذلك قوله قي هجاء المفضل وسلبه كل صفات العلم:

لو تلففت في كساء الكسائي　　　وتلبست فروة الفراء
وتخللت بالخليل وأضحى　　　سيبويه لديك رهن سباء
لأبى الله أن يعدك أهل العلم　　　إلا من جملة الأغبياء

ولم ينج من سوط سخريته اللاذعة أصحاب المناصب العليا من قضاة وولاة ووزراء ...[2]نذكر منهم على سبيل المثال القاضي أبو حسان الزيادي ، والوزير إبراهيم بن المدير، ووالي الكوفة محمد الطائي وغيرهم...

هذا وقد كان للمتنبي في أهاجيه صورا كاريكاتورية رائعة، جمع فيها كل ما تبقى من قواه النفسية المحطمة بين الأمراء والخلفاء، الضائعة الممزقة بين وعودهم الكاذبات، ولعل أشهرها ما سجله في هجاء كافور الإخشدي، فقد تبين له أن مدائحه فيه خطيئة لا تغتفر عليه أن يكفر عنها، فراح يمسخها أحيانا بذم في قالب

1 - ابن الرومي - الديوان – 34 -36 .

2 - عبد الحميد محمد جيده- الهجاء عند ابن الرومي- منشورات المكتب العالمي للطباعة والنشر- لبنان- 1974- 263- 285.

مدح لا يدركه إلا ذوو النهي وأحيانا بصور مضحكة تحمل الكثير من الأسى والحسرة من ذلك قوله في مطولته « عيد بأي حال عدت يا عيد »[1] :

ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم   إلا وفي يده من نتنها عود
أكلما اغتال عبد السوء سيده   أو خانه فله في مصر تمهيد؟
لا تشتر العبد إلا والعصا معه   إن العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن   يسيء بي فيه عبد وهو محمود
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا   وأن مثل أبي البيضاء موجود

وشبيهتها تلك القصيدة اليائية التي أعلن فيها سخطه على كافور الإخشدي الذي لم يبد له إنسانا بل ركاما من المخازي وحشدا من المعايب، كما عاد على نفسه باللوم لأنها طمعت فيما لا مطمع فيه وعلقت الآمال على ما لا يرتجى منه فرج، نقتطف منها قوله[2] :

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا   وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا
أَمَيْنًا وإخلافا وغدرا وخسة   وجهلا، أشخصا لحت لي أم مخازيا
تظن ابتساماتي رجاء وغبطة   وما أنا إلا ضاحك من رجائيا

هذا وهناك صور رائعة في الهجاء الاجتماعي كانت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية الباعث الأول لها فقد وجه الشعراء أداة نقدهم لبعض الظواهر الاجتماعية المنحرفة ولم يتورع بعضهم عن الخلفاء أنفسهم، ولعل أبرز الشعراء الذين صوبوا سهامهم الناقدة إلى الخلفاء و رجال الدولة الشاعر دعبل الخزاعي الذي ظل يهجو الخليفة تلو الخليفة ويبحث لكل عن مساويه، فلما عرف المهدي بحب الغناء والمثابرة عليه تخيله يدفع الألحان الموسيقية أجرا للجند فأحيانا يدفع الألحان الحنينية نسبة للمغني حنين وأخرى المعبدية نسبة لمعبد لأن مصحف الخليفة هو البربط وليس القرآن الكريم، يقول[3] :

يا معشر الأجناد لا تقنطوا   وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينية   يلتذها الأمرد والأشمط

1 – المتنبي– الديوان– – شرح البرقوقي – 2/139-148.
2 – المصدر نفسه – 2/ 432 – 433 .
3 – دعبل الخزاعي – الديوان شرح ضياء حسين الأعلمي – مؤسسة النور للمطبوعات – بيروت – ط1 – 1417-1997 – ص 124-125.

والمعبديات لقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط

وهكذا يرزق قواده خليفة مصحفه البربط

وإنه يتلقى كل خليفة جديد بهجاء أشد إقذاعا من سابقه فما كاد المعتصم يتولى الخلافة حتى انبرى له الشاعر بأعنف أبيات هجاء يمكن أن تنال خليفة، وقد طلبه بها المعتصم طيلة حياته منها[1] :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب

كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة خيار إذا عدوا وثامنهم كلب

وإني لأعلي كلبهم عنك رفعة لأنك ذو ذنب وليس له ذنب

ومثلما فاجأ المعتصم بالهجاء إثر توليه الخلافة، لم يفرح بموته ولم يرحب بالخليفة الجديد الواثق يقول[2] :

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء إذا أهل البلى رقدوا

خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

وهذا ابن الرومي يعلن ثورته على الشعراء لكذبهم في المديح ونسبة الكرم إلى من لا يصح فيه ،كما يثور على الممدوح لتظاهره بما ليس خلة فيه، إنه يثور لشرف الكلم وشرف الكرم الذي استحال إلى لفظة تتلى وهي فاقدة للمعنى، عديمة الدلالة، يقول :

أدعو على الشعراء أخبث دعوة إذ مجدوك، وغيرك الأمجاد

قل لي بأية حيلة أعملتها هتفوا بأنك –لا حُفظت- جواد

وهاهو ابن الرومي يقف مرة أخرى في موقف المحاكمة، يحاكم المجتمع بكامله لأنه لا يضع الناس في مواضعهم الحقيقية فيرفع بعضهم وهم لا يستحقون الرفعة ، ويقزم البعض الآخر وهم الأهل للمعالي والأولى بالمناصب والدرجات العليا ، أنصت إليه يهجو أبا صقر لاكتسابه منصبا لا كفاءة له فيه وانتحاله نسبا غير نسبه، يقول:

عجب الناس لأبي صقر إذ ولي بعد البطالة الديوانا

ولعمري، ما ذاك أعجب من أن كان علجا، فصار من شيبانا

إن للمجد كيمياء، إذا ما ما مس كلبا أحاله إنسانا

يفعل الله ما يشاء كما شاء متى شاء كائنا من كانا

---

1 - المصدر نفسه - 42.

2 - المصدر نفسه – 8 2.

فهذه الأبيات لا تمثل واقع المهجو بقدر ما تمثل واقع عصره، وتتصدى لزيفه ونفاقه...وهذه إحدى صرخاته الثائرة، ولا ملاذ إلا الله، يرجو منه الشاعر إنصافا بعد أن انقلبت الموازين وعلا السافل وارتفع الأراذل وأبعد ذووا الكفاءات وهمشوا ... يقول في صورة تشبيهية تمثيلية مؤثرة تصف ذلك المشهد المعوج المؤسف :

أصبح السافل منا عاليا   وهوى أهل المعالي والشرف

ربّ أنصفني من الدهر فما   لي إلا بك منه منتصف

يسفل الناس ويعلو معشر   قارفوا الأقراف من كل طرف

ولعمري لو تأملناهم   ما علوا لكن طفوا مثل الجيف

ختاما فقد واكب فن الوصف جديد الحياة العباسية بكل دقة ورصد مظاهرها العديدة وتميز عن غيره من الفنون، فقد غلبت النزعة البديعية المسرفة على فن الوصف في القرون المتأخرة وبلغت أوجها على يد ابن المعتز الذي كان صاحب التنظير والتطبيق لها . و لعل أهم خاصية غلبت على الوصف العباسي هي صفة التعقيد ومزج المعاني بالنزعة الفلسفية والصناعة اللفظية المفرطة وإضفاء مسحة من المنطق والجدل عليها ، كما فعل أبو تمام ومن تلاه من الشعراء، بحيث تغري السامع بتتبعها والبحث فيها عن جديد. كما تميز الوصف العباسي بقدرة الشاعر على التجديد وتناول المعاني على شكل صور دون أن يقدر في الغالب على الغوص في أعماق النفس وما تموج به من مشاعر، ولو توغل فيها وتكشف غوامضها وأسرارها لأبدع، فالشاعر العباسي يكاد لا يلتفت إلى نفسه مرة حتى يلتفت إلى عقله وذاكرته مرات، ولذا فإن فضيلة الوصف العباسي تظهر خاصة في استقلال القصيدة وترابط عناصرها وقدرة الشاعر على تتبع ما يصف دون ملل وتجزئته إلى أدق عناصره وتوليد الصور العديدة من المشهد الواحد.وقد شهد ابن رشيق بكثرة المعاني المولدة ورأى في ذلك استجابة لتوسع الملك الإسلامي، فقال " إن المعاني إنما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض ، فمصروا الأمصار وحضروا الحواضر، وتأنقوا ...إذا تأملت تبين لك ما في أشعار جرير والفرزدق ...من التوليدات والإبداعات العجيبة ، ثم أتى بشار بن برد وأصحابه فزادوا معاني ما مرت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا إسلامي ، والمعاني أبدا تتردد وتتولد ، والكلام يفتح بعضه بعضا.وقد سئل بشار بن برد عما فاق به أهل عصره فقال: [1]" لأني لم أقبل

1- أحلام الزعيم- قراءات في الأدب العباسي الحركة الشعرية-86.

كل ما تورده علي قريحتي ويناجيني به طبعي ويبعثه فكري، فنظرت إلى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات فسرت إليها بفهم جديد...فأحكمت سبرها وانتقيت حرها وكشفت عن حقائقها و احترزت من متكلفها..."

وقال بعض النقاد : "إن المعاني كانت مكوزة في الأرض حتى جاء أبو نواس واستخرجها"[1]

وقد عرف فن الهجاء في العصر العباسي بدوره تطورا ملحوظا، فبعد أن كان الناس يتنازعون تنازعا سياسيا قبليا في العصر الأموي، أصبحوا يتنازعون تنازعا فكريا حضاريا اجتماعيا، ولعل أبرز ما يميز هجاء هذا العصر هو ذلك الوصف الساخر والرسم الكاريكاتوري الماسخ المضحك، سواء على الصعيد الفردي (هجاء الأشخاص) أو الجماعي (هجاء المظاهر) كما عرف مجالا جديدا في الهجاء يمكن تسميته "بالنقد الاجتماعي"، عكف الشعراء فيه على علاج أدواء المجتمع بهجاء لاذع ساخر منفر للنفوس من تلك العاهات الاجتماعية، وقد برع في هذا النوع من الهجاء كل من ابن الرومي والمتنبي، غلب على نقد الأول طابع السخرية والتهكم وعلى نقد الثاني المنطق والحكمة حتى غدت انتقاداته أمثالا تضرب كلما اقتضى الحال ذلك، وهناك ظاهرة فنية أخرى تميز هذا الفن هي غلبة الوصف عليه حتى لتنقلب جل قصائد الهجاء إلى صور ماثلة في مخيلة القارئ بكل تفاصيلها، أما صوره فلم تكن حاقدة ناقمة، بقدر ما كانت حانقة غاضبة تهدف إلى العلاج بواسطة ذلك الرسم الساخر وذلك المسخ الشديد للمظاهر غير المرغوب فيها، والتضخيم المبالغ فيه للعيوب (وبخاصة الخُلقية) حتى تنفر الناس منها، وهي وسائل فنية لم تكن المقامات أكثر إفصاحا وبيانا عنها.

1- المرجع نفسه.

حركتي الشعوبية والزندقة وانعكاسهما على الشعر خاصة :

أ - حركة الشعوبية :

تعريف الشعوبية : غلبت تسمية "الشعوب" بلفظ الجمع على جيل العجم، حتى قيل لكل محتقر أمر العرب شعوبي، والشعوب هي تلك الفرقة التي تدعو إلى المساواة ولا تفضل العرب على العجم ولا تحط من قدر العرب ولا ترى لهم فضلا على غيرهم، وقد تطور المصطلح لتدل كلمة الشعوبي على كل من يقول بالمساواة ويرى أن لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ،يقول صاحب العقد الفريد "الشعوبية هم أهل التسوية" وقال صاحب الصّحاح: "الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على العجم"[1].ومضت الكلمة في تطورها الدلالي حتى أطلقت هذه التسمية على المعادين للعرب عند كل من الجاحظ وابن عبد ربه.

أما اصطلاحا فهي حركة فكرية واجتماعية وثقافية شارك فيها أول الأمر العرب والعجم على السواء، وذلك عندما كانت تدعو إلى المساواة وتعلن ثورتها ورفضها للسياسة الأموية التي أبعدت العنصر الأعجمي وسلبته الكثير من حقوقه التي منحه الإسلام، فقد بدأت أول الأمر شعارا إنسانيا جليلا وقف إلى جانبه الفقهاء وأهل التقوى والصلاح والمروءة والانتصار للعدل.

وبقيام الخلافة العباسية وتوغل العنصر الأعجمي فيها أخذت هذه الدعوة تنحرف عن خطها الأول بقيادة بعض الحاقدين على العرب والإسلام، من الشذاذ والمنحرفين لتصبح إزدراء بالعرب وضربا لكيانهم ومهاجمة لتراثهم الإسلامي وتشكيكا في دورهم التاريخي واستهزاء بقيمهم ومثلهم، وفي المقابل تعتز تلك الطائفة الحاقدة بالإرث الأعجمي وتمجد القيم والسجايا غير العربية[2]، وقد وضعت مؤلفات عدة في الانتقاص من قدر العرب وأخرى في مناقب العجم نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

---

1 - ينظر :- ابن منظور- لسان العرب -
- و معجم الصحاح -
- و مادة - (ش. ع. ب).

2 - ينظر " : حسين عطوان - الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول - دار الجيل - بيروت - 149-165.

-كتابي: "فضل العجم على العرب" و"انتصاف العجم من العرب" لـ"سعيد بن حميد البختكان"

- كتابي : "أدعياء العرب"، و"فضائل الفرس" لـ" أبي عبيدة معمر بن المثنى"

- كتاب : المثالب لـ "علان الفارسي"

- كتاب : مثالب العرب والإسلام لـ" يونس بن أبي فروة"...

وقد وضع سهل بن هارون صاحب خزانة الحكمة رسائل في البخل يمدحه وينتقص من كرم العرب، وربما عددنا كتاب البخلاء للجاحظ ردا عليه وعلى غيره من الشعوبيين...

ومن المعروف أن الشعوبية هاجمت الإسلام في الصميم لاتصاله الوثيق بالعربية وحاولت بث روح التشكيك في قيمه والاستهزاء والاستخفاف بها متسترة في كثير من الأحيان تحت شعار عرفه العصر هو ستار الظرف و المجون، ومجاهرة أحيانا في ثوب الزندقة، وبذلك كانت الشعوبية سلاحا فكريا ثقافيا ساهم في هدم كيان الأمة الإسلامية أكثر من الثورات المسلحة.

الشعوبية والشعر: حمل عدد من الشعراء لواء الشعوبية وسخّروا شعرهم لخدمتها وحمل لواءهم جميعا بشار بن برد و أبو نواس، إلى جانب عدد آخر من الشعراء ممن لبسوا ثوب المجون واللهو.

والمطلع على حياة بشار بن برد يراه غير راض بذلك الولاء المفروض عليه للعرب والذي كثيرا ما كان يتذمر منه، ومن ذلك قوله[1] :

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم   مولى العريب فخذ بفضلك فافخر

مولاك أكرم من تميم كلها   أهل الفعال ومن قريش المعشر

فارجع إلى مولاك غير مدافع   سبحان مولاك الأجل الأكبر

فبعد أن كان الجهر بمثل هذه الأفكار محظورا أيام بني أمية فتحت له الأبواب بمجيء بني العباس حتى وجدنا بشار بن برد ينشد في حضرة المهدي مفاخرا لما سأله فيمن يعتد(أي إلى أي القبائل ينتمي)، يقول[2] :

1 - بشار بن برد - الديوان - شرح ترتيب - مهدي محمد ناصر الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - 483-484.

2 - تنظر أخباره :الأصفهاني - الأغاني - 20/3.

ونبئت قوما بهم جنة يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائلي جاهدا ليعرفني أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بنو عامر فروعي وأصلي قريش العجم

ويظل ذلك التذمر من الولاء للعرب يتحرك في أعماق بشار ويتفجر من حين لآخر في أبيات من الشعر كلما وجد ما يثيره ،فقد ذم أعرابي في مجلس الموالي ولم ير لهم صلة بالشعر وكان بشار حاضرا فأجابه ساخرا من العرب جميعا، وعيرهم بالفقر والعري والرعي وكل طقوس الحياة العربية البدوية ، يقول[1] :

أحين لسبت بعد العري خزا ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراعي بني الأحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح شركت الكلب في ولغ الإطار
تريغ بخطبة كسر الموالي وينسيك المكارم صيد فار
مقامك بيننا دنس علينا فليتك غائب في حر نار
وفخرك بين يربوع وضب على مثلي من الحدث الكبار

ومن أشد صور بغض بشار المقيت للعرب تلك الرسالة الشعوبية الموجهة إليهم جميعا الأحياء منهم والأموات والتي تحمل الكثير من التعصب للعنصر الفارسي الذي عده أشرف العجم وجعله من العجم بمنزلة قريش بين العرب، من تلك الرسالة المطولة التي أسقط منها المقدمة التقليدية من باب الشعوبية الفنية الرافضة للتقليد الفني العربي ولعمود القصيدة العربية، نقتطف قوله[2] :

هل من رسول مخبر عني جميع العرب
من كان حيا منهم ومن ثوى في الترب
بأنني ذو حسب عال على ذي الحسب
جدي الذي أسمو به كسرى و ساسان أبي
وقيصر خالي إذا عددت يوما نسبي
كم لي وكم لي من أب بتاجه معتصب

---

1 – بشار بن برد – الديوان – 483-484.
2 – نفسه – 181-182.

كما لا ينسى الازدراء بالعنصر العربي وتعييره بمظاهر الحياة البدوية ويختص منها ملامح قساوة الصحراء وشظف العيش يقول في الرسالة نفسها :

لم يسق أقطاب سقى   يشر بها في العلب
ولا حدا قط أبى   خلف بعير جرب
ولا أتي حنظلة   يثقبها من سغب
ولا أتي عرفطة   يخبطها بالخشب
ولا شوينا ورلا   منضنضا بالذنب
ولا اصطلى قط أبي   مفحجا للهب
إنا ملوك لم نزل   في سالفات الحقب

ثم يذكر بني العباس بمناصرة الفرس لهم مع ظهور الدعوة العباسية من بلخ وخراسان ويلمح بالمن عليهم بدور الخراسانيين في إسقاط الدولة الأموية، ولكنه يخفي ذلك ويستره بتهنئة الخليفة العباسي بالملك الجدبد ، وبذلك الموقف السياسي الذي يرى بني العباس أولى قريش بخلافة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهم أعمامه والأعمام أولى بميراثه... يقول:

نحن جلبنا الخيل من   بلخ بغير الكذب
حتى إذا ما دوخت   بالشام أرض الصلب
حتى استلمنا ملكها   يملكنا المستب
وجاءت الخيل بنا   طنجة ذات العجب
حتى رددنا الملك في   أهل النبي العربي
فاهنأ أبا الفضل بها   أولى قريش بالنبي

وإلى جانب تلك المعاناة النفسية التي كانت تعذب بشار أو تجرح كبرياءه والمتمثلة في عقدة الموالاة للعرب فتجعله يتملص من ذلك الولاء كلما سنحت له الفرصة ويعلن ولاءه الحقيقي ويفصح عن انتمائه، فقد كانت له شطحات أخرى لم تقف عند حدود كره العنصر العربي، وإنما امتدت لتضرب الإسلام الذي ارتبط ارتباطا وثيقا بالعرب، فقد مال في بعض مراحل حياته إلى الجبرية ليبرر كل ما يقوم به من أعمال وأنه غير مخير فيها فيقول:

خلقت على ما في غير مخيّر   هواي ولو خيرت كنت المهذبا

أريد فلا أعطى وأعطى فلم أرد ويقصر علمي أن أنال المغيبا[1]

ولكنه لم يثبت على مذهب وظل مضطربا طيلة حياته متحيرا، باحثا عن منافذ لإشباع رغباته والانفلات من كل قيد، لذلك رأيناه ينتصر لإبليس في تمرده ويراه أفضل من آدم عليه السلام يقول على عادة عبدة النار:

إبليس خير من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار

النار جوهرة وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار[2]

وقد تصدى للرد عليه في هذه الفكرة الوثنية "صفوان الأنصاري" وأشاد بالأرض وما تحمله من معادن تخدم الإنسان في حياته اليومية.

وإن لم يسرف بشار في مكبوتاته وإنما كان يتنفس من حين إلى آخر بقدر، فإن أبا نواس كان أكثر جرأة لأنه كان من نتاج المدنية العباسية بينما عاش بشار جل حياته في ظل الخلافة الأموية أين كان يتحتم عليه التزام حدود معينة وآداب لا يحيد عنها.

ولأن أبا نواس (139-195هـ) تربى يتيم الأب فإنه لم يحظ بتنشئة جيدة وإن طلب العلم طفلا ونهل منه فإنه كان ميالا إلى الشعر تواقا إلى التعرف على الشعراء، وكان ممن اتصل بهم الشاعر "والبة بن الحباب"[3] الذي خلا له الجو ليصبح أستاذ أبي نواس وراعيه، مع ما عرف عنه من مجون واستخفاف بالدين وإدمان على الخمر، بل وعد في أوائل المنحرفين وكان أول من تغزل بالغلمان في شعره ، وقد ترك بصمات عميقة في شخصية أبي نواس كان الشعر أكبر كاشف عنها ، من ذلك هذه الصور التشكيكية فيما بعد الموت واستخفافه بأركان الدين قوله:

فقل للخمس آخر ملتقانا إذا ما كان ذاك على السراط

وإذا كان هذا بعض شان الأستاذ فلا نعجب من المنحى الخطير الذي نحاه أبو نواس في حياته وشعره من انحراف وفساد في العقيدة، وقد لاحظ الجاحظ تلك العصبية البادية في شعره وإن حسن فقال: «هذا مع صدق الطبع وجودة السبك

1 – بشار بن برد – الديوان – 108.

2 – خليل جفال – الشعوبية والأدب – دار النضال – بيروت – ط1 – 1986 – ص 11.

3 – ينظر: ابن المعتز– طبقات الشعراء– 208 .

والحذق بالصنعة وإن تأملت شعره فضلته إلا أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو أيضا أشعر».

ارتضى أبو نواس لنفسه مذهب اللذة، وفاق أستاذه في ذلك وكانت له صلة وطيدة بالبرامكة، ونزوع إلى مذهبهم في التعصب للفرس وتفضيلهم على العرب، ولعلنا نلاحظ بعض ملامح تلك الثورة على التقليد الفني العربي المألوف والمتمثل في عمود القصيدة العربية ومقدمتها . ولم يخف أبو نواس انحيازه للحضارة الفارسية واستهجانه لكل مظاهر الحياة البدوية وأذواق العرب فيها، يقول مقابلا بين الحضارتين (الفارسية والعربية) مستهجنا كل ما هو عربي دون أن ينسى مذهبه في الدعوة إلى الإغراق في الملذات[1] :

دع الرسم الذي دثرا يقاسي الريح والمطرا
وكن رجلا أضاع العمر في اللذات والخطرا
ألم تر مابنى كسرى وسابور لمن عبرا
بأرض باعد الرحمن عنها الطلح والعشرا
تعد الشيح والقصيو م والفقهاء والسمرا
جني الآس والنسرين والسوسان إن زهرا
ويغنيها عن المرجان أن تتقلد البعرا

ويمضي في ثورته على الأطلال وثورته على العرب في آن، فيقول متنكرا للعنصر العربي رافضا لجذوره الممتدة من الأعماق، فيرى أن الأعاريب عند الله "لا أحد" ، ويسمي منهم قبائل مشهورة معروفة (تميم ، وقيس وأسد...) ثم يدعو على كل من حدثته نفسه ببكاء أطلالهم من حجارة وأوتاد وغيرها بألا تجف دموعهم أبدا ولا تصفو قلوبهم من الغم والأحزان، يقول[2] :

عاج الشقي على رسم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا درّ درك قل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفهما ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

1 – أبو نواس– الديوان – 419– 420.
2 – أبو نواس – الديوان – 55.

وهو يحذر كل من يفكر في اقتفاء مظاهر الحياة العربية والتمتع بلذائذها، لأنها جديبة خشنة، لا شراب فيها غير الألبان التي لا تشبع نهم الشاعر وأمثاله من المجان، يقول :

دع الأطلال تسفيها الجنوب وتبكي عهد جدتها الخطوب
ولا تأخذ عن الأعراب لهوا ولا عيشا فعيشهم جديب
ذر الألبان يشربها رجال رقيق العيش بينهم جديب
إذا راب الحليب فبل عليه ولا تحرج فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول يطوف بكأسها ساق أديب
فهذا العيش لا خيم البوادي وهذا العيش لا اللبن الحليب[1].

وغير خاف على الشعوبيين أن هؤلاء الأعراب البدو قد أقاموا بفضل الإسلام دولة عظيمة ورفعوا لواء الإسلام عاليا في بلاد العجم (الفرس، الروم، الهند) وبلاد الأمم ذات الحضارة العريقة الضاربة في أعماق التاريخ، ولكنهم مع ذلك يريدون تعيير العرب بالبداوة ويستخفون بشأنهم ويحاولون استصغارهم أمام الناس لينتقل ذلك الازدراء إلى مبادئهم وأخلاقهم ومثلهم الإسلامية العليا، « والخلاصة أن أبا نواس أهم شاعر اعتنق الشعوبية وحامى عنها وكايد العرب، وجحدهم فضلهم وتنقصهم ... فعاب آداب العرب وسخر بأسمائهم في حواره مع الخمار اليهودي، وعاب على العربية كثرة المفردات وثار على تقاليدهم الفنية... »[2].

ب – **حركة المجون والزندقة:**

الزندقة كلمة فارسية من زنديكي وقد كانت تطلق أول الأمر على متبع كتاب "الزند" وهو كتاب

ماني وأريد بها عند الزردشية الخروج عن الدين [3]، وقد استعملت في المجتمع العربي للدلالة على طائفة من أصحاب الديانات الوثنية كانت تظهر الإسلام وتبطن غيره ،

---

1 – أبو نواس – الديوان – 31.

2 – خليل جفال – الشعوبية والأدب – 316.

3 – ينظر :– فرهنكَ آموزكَار، حبيب الله آموزكار، كانون معرفت، تهران، جاب سّوم.

– فرهنكَ فارسي عميد، حسن عميد، چاپخانه سپهر، تهران، چاپ ششم 1364. (مادة زنديك)

ومنهم من تجاوز هذه المرحلة وتعداها إلى الإعلان والمجاهرة. وقد تتبعهم جميعا خلفاء بني عباس وبخاصة الهادي والمهدي والرشيد والمأمون و أنشىء ديوان خاص لتعقبهم ومناظرتهم و استتابتهم وعقابهم إن ثبت عليهم جرمها .

وإن جاهر حملة لواء الشعوبية من الشعراء وصرحوا بكرههم للعنصر العربي وحاولوا ضرب الحضارة العربية الإسلامية، فإن طائفة أخرى أخفت كل ذلك واختفت تحت ستار المجون وطلب المتع واللهو و الظرف بعيدا عن أية أغراض أخرى، ومثلما ساهم سابقوهم في خدمة الأهداف الرئيسية للشعوبية والمتمثلة في ضرب الخلافة الإسلامية وتقويض أركانها، فإن هذه الطائفة حملت اللواء بدورها دون أن تعلن كرهها للعرب ومظاهر حياتهم، وإن دلّ مصطلح الزندقة على إظهار الإسلام وإبطان غيره فإن كثيرا من شعراء هذه الحركة الهدامة الخطيرة جاهروا بمذاهبهم، وقد اجتهد النقاد المعاصرون في تخريج ذلك فسموا بعضها زندقة فكرية والأخرى اجتماعية والأخرى سياسية[1]، مع أنها تصب جميعا في خط واحد هو ضرب الحضارة العربية الإسلامية بل والتشكيك في الدين.

وقد شكل أولئك عصابة كبيرة من الشعراء أمثال أبان بن عبد الحميد اللاحقي والحسين بن الضحاك ومسلم بن الوليد و والبة بن الحباب ومطيع بن إياس وأبو قابوس النصراني وابن أبي عينية وغيرهم، ولا يخفى تأثير حركة الشعوبية في هذا التيار الماجن خاصة وأن رؤوس الماجنين وأغلب أفراد عصابة المجان تلك، –كما أسماها أبو نواس– من الموالي الرافضين لموالاتهم للعرب، الناقمين عليهم، وما حثهم على المجون والاستهتار بالمثل وسعيهم إلى انتشار الفساد إلا جزء من السياسة الشعوبية الرامية إلى هدم مقومات المجتمع الإسلامي، لاسيما وهم لم يكتفوا بإشباع رغباتهم وإنما بالمجاهرة بذلك وكثيرا ما يعني الجهر بالأمر الدعوة له، لأن في ذلك إزالة لما في النفوس من حرج تجاه تلك المحرمات، يقول أبو نواس مصرا على استمراره في الفساد :

لست بالتارك لذا ت الندامى للصلاح
قل لمن يبغي صلاحا بعت رشدي بطلاحي
أطيب اللذات ما كا ن جهارا بافتضاح

1 – حسين عطوان – الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول – 18.

والظاهر أن تيار المجون اتصل إلى حد بعيد بمعاقرة الخمر والتغني بذلك كما اتصل بالغزل الخليع المكشوف والغزل بالمذكر الذي لم يعرفه الشعر العربي من قبل.

وربما عددنا هذا الوجه من المجون أول درجة في طريق الزندقة بكل ألوانه العنيفة من إباحة وشذوذ وارتكاب محرمات، أما الزندقة فهي الخطوة الصريحة إلى ضرب المجتمع الإسلامي ولا يمكن أن ننكر أثر الشعوبية أيضا في تقوية تيار الزندقة، فقد كان الشعوبيون يعملون على تحطيم معنويات المسلمين ودس الأكاذيب والمفتريات في أصول دينهم، حتى أن بعضهم لجأ إلى وضع الأحاديث التي تخدم نواياه الخبيثة، مثلما فعل عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي قال لما أيقن بالموت وقد قبض عليه القائمون على ديوان "الزنادقة" : « لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال، وأحلّ الحرام »[1].

وفي طائفة الزنادقة يقول المرتضى أنهم: «جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام ويحقن بإظهار شعائره والدخول في جملة أهله وماله، زنادقة ملحدون وكفار مشركون، فمنعهم الإسلام عن المظاهرة، وألجأهم خوف القتل إلى المساترة ، وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ، لأنهم يدخلون في الدين يموهون على المستضعفين بجأش رابط ورأي جامع ». وقد رمى جل البرامكة بالزندقة وفي ذلك يقول شاعرهم وصديقهم أبو نواس :

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك

وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

والزنادقة أصناف شتى تحثهم على الزندقة دوافع عدة، منها الدافع الديني، لأن حملتها يؤمنون بغير الإسلام، والدافع السياسي الذي فيه من العصبية القومية للأمجاد الماضية، والدافع الحضاري إذ انبهرت طائفة بذلك الترف المادي فراحت تبحث لنفسها عن مبررات لإشباع غرائزها، فعمدت إلى التشكيك والعبث في جو من اللهو لا يشعر بخطورته إلا القليل، بل إننا نجد في صفوفهم الخليفة "الوليد بن يزيد" الذي حفظت بعض كتب التراث من أشعاره الدالة على مجونه واستهتاره ومروقه الكثير.وهذا زعيمهم أبو نواس ينكر البعث والقيامة جهارا فيقول :

وأيسر ما أبثك أن قلبي بتصديق القيامة غير صاف

1 - خليل جفال - الشعوبية والأدب - 98.

ولا يقف أبو نواس عند الثورة الفنية على عمود القصيدة العربية ولا عند الثورة الحضارية الرافضة لكل مظاهر الحياة البدوية، وإنما ينتقل إلى الثورة العقائدية والتمرد على الدين بحثا عن متنفس لشهواته وطلبا لإشباع غرائزه، مستأنسا في كثير من الأحيان بحجج واهية محاولا بها إقناع منتقدي مذهبه في اللذة ،فهو يفلسف مصطلح الغفران ويتلاعب بالألفاظ الإسلامية يتأولها ويقلب دلالاتها، يقول[1] :

غاد المدام وإن كانت محرمة   فللكبائر عند الله غفران

ثم يدعو إلى الشرب والإكثار منه لأن الغفران لم يخلق إلا للمخطئين، فيقول[2] :

اترك التقصير في الشر   ب وخذها بنشاط
من كميت كسنا البر   ق أضاءت في البواط
لم وعفو الله مبذو   ل غدا عند الصراط
خلق الغفران إلا   لامرئ في الناس خاط

ليتطور بعد ذلك في سلوكه ويصل إلى المجاهرة بالكبائر والدعوة إلى الإباحية المطلقة حتى يرى أن لا متعة في المجون و التهتكك دون أن يتبع ذلك بكفر –والعياذ بالله– يقول مجاهرا ضاربا كل المثل العليا للإسلام[3] :

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر   ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر
وما الغبن إلا أن تراني صاحيا   وما الغنم إلا أن يتعتعني السكر
فبح باسم من تهوى ودعني من الكنى   فلا خير في اللذات من دونها ستر
ولا خير في لهو بغير مجانة   ولا في مجون ليس يتبعه كفر

ويمضي الشاعر في عناده وإصراره على المعصية ، غير مبال بمشاعر الناس و ملاماتهم مستهينا بلومهم، مستغن عن الاعتذار لهم، لقد هان عليه الناس فما حاجته إلى طلب العذر يقول:

وهان علي الناس فيما أريده   بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر

---

1 – أبو نواس– الديوان – 112-113.
2 – المصدر نفسه – 151.
3 – أبو نواس – الديوان – 44.

ثم يعلن الشاعر دهريته فلا قدر صح في معتقده ولا جبر ولا بعث، إنه لا يعرف ولا يؤمن إلا بالموت والقبر[1] :

يا ناظرا في الدين ما الأمر   لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندي من جميع الذي   تذكره إلا الموت والقبر

ويقول مصرحا بدهريته في زمن كثرت فيه المعتقدات الزائفة وتضاربت محدثة خللا في المجتمع العربي عموما[2] :

باح لساني بمضمر السر   وذاك أني أقول بالدهر
وليس بعد الممات مرتجع   وإنما الموت بيضة العقر

وبعد أن تستحكم فيه هذه النظرية يمضي قدما في جرأته وتطاوله، فيستعجل أطايب هذه الحياة الدنيا فلا أحد جاءه وأخبره عن الذين ماتوا، أفي الجنة هم أم في النار، يقول مستخفا بالبعث[3] :

ورأيت إيثاري اللذاذة والهوى   وتعجلا من طيب هذي الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل   علمي به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه   في جنة من مات أو في النار

ويردد المعنى نفسه في موضع آخر فيقول[4] :

قلت والكأس على   كفّي تهوي لا لتثامي
أنا لا أعرف ذاك اليوم   في ذاك الزحام

والملاحظ من خلال هذه الأبيات مجاهرة أبي نواس واستخفافه الشديد بقيم الإسلام ومبادئه ومثله العليا و إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على رسوخه في مذهبه الذي لا يريد أن يحيد عنه، لما يتيحه له من حرية ومتاع الدنيا الزائل. ويبلغ الأمر به الدعوة إلى ترك الدفاع عن الأوطان لأن لديه الأهم من الذود عن الأوطان وهو الشرب والتهتك والفجور، سجل قصيدة طويلة أنشأها على شكل استفتاء لفقيه في مسائل تتعلق بشؤون الدين من صلاة وصيام وجهاد وحج ورد دين إلى

---

1 - حسين عطوان – الزندقة والشعوبية – 85.
2 - المرجع نفسه – 86.
3 - المرجع نفسه – 86.
4 - المرجع نفسه – 86.

صاحبه ... وجعل من نفسه ذلك الفقيه العارف بأمور الدين المحيط بأحكام الشرع ، ولكنه أباح لنفسه أن يفتي لها وهي الأمارة بالسوء بنقيض ما يقتضيه الإسلام وكل الشرائع الأخرى وهي قمة الاستهتار بالدين ومنتهى التهتك .كما أنكر كثير من الشعراء البعث و القيامة والحساب والعقاب ليغرقوا في ملذاتهم ويشبعوا جوع غرائزهم الحيوانية فهذا الشاعر عمرو الخاركي يدعو إلى اللهو والعبث والاستمتاع، ويرى أنه خدع في الدهر عندما كان يؤمن بالبعث يقول :

وعشت كالمغرور في دينه　　　يوقن بعد الموت بالبعث

ويستهزئ الشاعر منقذ بن عبد الرحمن بن زياد الهلالي بما وعد به المولى عز وجل عباده الصالحين في جنته، إنه يتعجب من ترك لذائذ الدنيا الآنية مقابل وعد يراه وأمثاله من المجان مجرد خرافة ؟؟ فيقول :

أأترك لذة الصهباء نقدا　　　لما وعدوه من لبن وخمر

حياة ثم موت ثم بعث　　　حديث خرافة يا أم عمرو

وغير هؤلاء الشعراء ممن تشربوا الثقافات الأجنبية وحاولوا ضرب الحضارة الإسلامية كثر وقد انبرى للرد عليهم جماعة من علماء الأمة الإسلامية، وساندهم في ذلك أيضا جماعة من الشعراء الذين حاولوا توجيه الناس إلى الصلاح وإلى خير الدين والدارين، وهي طائفة الزهاد والمتصوفة من شعراء العصر العباسي.

- **موضوعات شعرية أخرى:**

1 - **شعر الزهد** [1] : إن نشطت حركة الزهد في العصر الأموي وعرفت أعلاما بارزين فإنه لا يمكن إلا اعتبارها إرهاصا لزهديات العصر العباسي التي يمكن اعتبارها اتجاها جديدا في الشعر العربي، فقد كان الزهد في العصر العباسي مذهبا له خصائصه وأصوله التي يرتكز عليها غير العفوية التي عرفها سابقه، وغدا فكرة عميقة يعتنقها الشاعر فتتغلل في كيانه ويتلبس بها شعره فلا يكاد ينحرف عنها إلى غرض من أغراض الشعر الأخرى.وقد جاءت هذه الفكرة نتيجة دوافع مختلفة تحث على وجودها إلى جانب الدافع الديني الذي كان أساسا لها، متمثلا في أولئك الذين اتقوا

---

1 - ينظر : - أحلام الزعيم - قراءات في الأدب العباسي - 334-435.
- عبد الحكيم حسان- التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى القرن الثالث الهجري- مكتبة الأنجلو المصرية – د ت-169-234 .

الله واستشعروا تفاهة الحياة الدنيا وعكفوا على أنفسهم يطهرونها من أدران الحياة المادية، متطلعين إلى ري شوقهم لله عن طريق تجاربهم الروحية الصافية لا عن طريق الاستدلال العقلي والبحث المنطقي المعقد الذي سلكه أصحاب المدارس الكلامية آنذاك.

فقد تحولت حركة الوعظ والقصص الديني إلى زهد[1]، تطور فيما بعد إلى تصوف وتجرد اتخذته فرق الصوفية التالية أساس منطلقاتها.

ولما اشتد تيار المجون اشتدت الحركة المضادة له، فظهر العديد من الزهاد و المتنكسين المتجردين لله. ففي القرن الثاني على سبيل المثال نجد رباح بن عمرو القيسي الذي لم يكن يعرف غير البكاء والتهجد والتضرع، وكان يرى دائما هائما بين المقابر. و"إبراهيم بن أدهم" الذي كان يردد قوله: «الحر من خرج عن الدنيا قبل أن يخرج منها». ومعروف الكرخي (ت200هـ) الذي أثر عنه قوله :" من كابر الله صرعه، ومن نازعه قمعه، ومن ماكره خدعه، ومن توكل عليه منعه، ومن تواضع له رفعه"، وبشر بن الحارث الحافي (ت227هـ) الذي نذكر من حكمه الكثيرة قوله: " الجوع يصفي الفؤاد ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق ...إذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم..." ونجد من زهاد القرن الثاني و متصوفيه الفضيل بن عياض، ووهيب بن الورد، ومحمد بن سيرين، وعطاء السلمي، وسفيان الثوري، وعشرات غيرهم من الزهاد الصادقين والزاهدات أمثال رابعة العدوية، وميمونة، وريحانة وحيونة. وفي العصر العباسي بدأ الزهاد يرتبطون في جماعات شيئا فشيئا منذ حوالي (150 هـ) في منازل خاصة وصوامع منعزلة بعيدا عن جلبة الدنيا وضجيجها.

ولعل أول من أنشأ رباطا صوفيا اجتمع فيه الزهاد والنساك "عبد الواحد بن زيد" (ت 177هـ)في عبادان (قرب الكوفة) [2]، ولم يكن الدافع الديني وحده وإنما هناك عوامل أخرى ساهمت في دعم الزهد وتطويره منها العامل السياسي والاجتماعي والاقتصادي من ذلك صراع الولاة والأمراء والحكام بخاصة في أواخر العصر العباسي الأول وبداية الثاني، وتطاحن الأمراء وتنافسهم، كل ذلك دفع ببعض الناس إلى التماس النجاة بعيدا عن ذلك الصراع السياسي. و مما لا شك فيه أن للتطور

---

1 – ينظر : شوقي ضيف – العصر العباسي الأولى – 399-413 – والثاني – 473-475.

2 – وفي ذلك يقول أبو العتاهية: سقى الله عبادان غيثا مجللا فإن بها جديدا وأولا .

الاجتماعي الذي عرفه العصر أثره في تطور تيار الزهد فشيوع اللهو والمجون، وظهور الفوارق الطبقية بين أبناء المجتمع ولد حركة عكسية مضادة عكفت على التقوى وقصرت نفسها للعبادة واحتقرت الدنيا وزخرفها وزينتها، كما ساهمت طائفة من القصاص في تطور هذه الحركة. ولم تكتف طائفة الزهاد بممارسة الزهد فحسب وإنما بدأت تجعل منه علما واسعا تؤلف فيه الكتب المنظرة له مثل كتاب "المريدين" لـ "يحي بن معاذ الرازي" (ت 206هـ) وكتاب "الزهد" لـ "بشير بن الحارث" (ت 227هـ).

ولم يكن الوضع الاقتصادي بعيدا عن التأثير في الحركة، فلم تكن الطبقات الفقيرة تستطيع شيئا غير أن تقنع بالكفاف في الرزق والاعتصام بتقوى الله لتتحول بعد ذلك إلى فلسفة الفكرة والتنظيم لها والتفاعل معها. ولعل أول ما وصلنا من شعر الزهد مقطوعات لـ "رابعة العدوية"(ت 180هـ)، التي بلغت الذروة في التجرد والتسامي عن كل ما هو حسي والاستغراق في حب الله، وهو مبدأ ربما يعد جديدا بالنظر لما قبله من مقطوعات زهدية، من ذلك قولها في مناجاة المولى عز وجل[1]:

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وتقول في الموضوع نفسه :

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ويأتي بعد رابعة العدوية في تاريخ الشعر الزهدي أبو العتاهية[2] أو كما يسميه البعض" أب الشعر الديني" في الأدب العربي، فبعد ان انغمس في اللهو والمجون وعب منهما عافت نفسه ذلك النوع من الانحطاط إلى مراتب الحيوانية لما حانت ساعة صحوه، ففي أيام إبراهيم بن أدهم ورابعة العدوية والفضيل بن عياض، عاش الشاعر

---

[1]-ينظر: محمد الراشد، نظرية الحب والاتحاد في التصوف الإسلامي من الحب الإلهي إلى دوامات الاتحاد المستحيل، الأوائل للنشر، دمشق، ط1، 2003، ص81-86.

[2]- ينظر : الأصفهاني- كتاب الأغاني- 3/3 و218/15.

ثورة نفسية تحولت به من النقيض إلى النقيض من حياة لاهية ماجنة إلى حياة زاهدة متنسكة طاهرة[1].

يقول ناصحا أولئك الذين يجمعون الأموال ويتركونها للأهل ولا يحملون معهم في رحلتهم الأخيرة إلا الأوزار والخطايا، أما الأهل ففرحون، ولا شيء يشغلهم بعده إلا الحديث في اقتسام ذلك الميراث:

أبقيت مالك ميراثا لوارثه فليت شعري ما أبقى لك المال
القوم بعدك في حال تسرهم فكيف بعدهم دارت بك الحال
سلوا البكاء فما يبكيك من أحد واستحكم القيل في الميراث والقال[2]

ويقول في قصيدة أخرى :

فيا عجبا تموت وأنت تبني وتتخذ المصانع والقبابا [3]

أما التذلل للملوك ومدحهم فتمجه نفس أبي العتاهية، إذ كثيرا ما أظهر ثورته على المديح والوقوف بأبواب السادة، ولطالما فعل ذلك هو قبل صحوته، وربما هو يتندم على لحظات الذل بأبواب الملوك والغفلة عن الوقوف بباب من لا يذل عنده أحد من ذلك قوله :

إن الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن لك في أكنافهم ظل
ماذا تربي لقوم إن هم غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن نصحت لهم ظنوك تخدعهم واستثقلوك كما يستثقل الكل
فاستغن بالله عن أبوابهم كرما إن الوقوف على أبوابهم ذل

ولطالما تشوق أبو العتاهية إلى حياة الزهد الحقيقية ودعا إليها وحبذها إلى قلوب الناس لما فيها من بساطة وعفوية وراحة بال، يقول :

رغيف خبز يابس تأكله في زاويه
وكوز ماء بارد تشربه من صافيه

---

1 – وإن وجد من شكك في زهده وعده مجرد ستار يبعد به عن نفسه تهمة الزندقة، لما فيه من أفكار هي أقرب ما تكون إلى زهد المانوية ... ، ورآه آخرون أنه زهد الفاشلين الذين أخفقوا في تحقيق مآرب الدنيا ، وزعموا أن سبب يعود فشله في حب الجارية عتبة وصدودها وتمنعها... للمزيد ينظر: – شكري فيصل– أبو العتاهية أشعاره و أخباره– مطبعة جامعة دمشق– 1364هـ 1965

(2)– أبو العتاهية– الديوان– 308.

(3)– المصدر نفسه– 39.

وغرفة ضيقة   نفسك فيها خاليه

أو مسجد بمعزل   عن الورى في ناحيه[1]

ومن الزهاد الذين خلفوا بعض الأشعار الفضيل بن عياض، نحو قوله :

بلغت الثمانين أو جزتها   فماذا أؤمل أو أنتظر

عمتني السنون فأبليتني   فرقت عظامي وكلَّ البصر

ومن الشعراء الزهاد أيضا محمد بن كناسة (ابن أخت إبراهيم ابن أدهم) الذي كان رجلا صالحا، لم يتعرض لامرئ بمدح أو هجاء، حاول سجان الكوفة إغراءه وجره إلى عالمهم المهتز فترفع عنهم وأنشد في ذلك قوله :

تؤنبني أن صنت نفسي عصابة   لها بين أطناب اللئام بصيص

يقولون لو غمضت لازددت رفعة   فقلت لهم إني إذا لحريص

أتكلم وجهي لا أبا لأبيكم   مطامع عنها للكرام محيص

معاشي دوين القوت والعرض وافر   وبطني عن جدوى اللئام خصيص

سألقى المنايا لم أخالط دنية   ولم تسر بي في المخزيات قلوص

ومن الزهاد الشعراء أيضا نجد محمود بن الحسن الدران الذي امتاز بثقافة واسعة كان يستخدمها ببراعة في شعره من ذلك قوله مستخدما المنطق والقياس ليسكت العصاة المدعين حب الله:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   هذا محال في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

أما محمد بن سيرين فقد كانت تشغل فكرة الموت باله، وتثير شجونه، مرارا فتدفعه إلى التمسك بعرى الدين الوثقى، من ذلك قوله :

يا حسرتي في كل يوم مضى   يذكرني الموت وأنساه

من طال في الدنيا به عمره   وعاش فالموت قصاراه

فكان قد قيل في مجلس   قد كنت آتيه وأغشاه

صار اليسيري إلى ربه   يرحمنا الله وإياه

---

(1)- الديوان-439 .

كما نجد الشاعر عبد الله بن المبارك اليزيدي يترك أشعارا في الزهد منها دعوته إلى الاستغناء عن الملوك بالدين ما دام أولئك قد استغنوا عن الدين بالمال يقول :

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما   استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

ويقول في الذنوب وأثرها في النفس:

رأيت الذنوب تميت القلوب   ويختم العقل إدمانها

يبيع الفتى نفسه في رداه   وأسلم للنفس عصيانها

وإلى جانب هؤلاء نجد الشاعرات الزاهدات أمثال ريحانة التي رسمت الدموع في وجهها خطا بارزا يعرفها الناس به، وقد سجلت أشعارا كثيرة في ذكر الآخرة من ذلك قولها لإبراهيم بن أدهم :

من كان راكبا يوما ليس يأمنه   وليله تائها في عتب دنياه

فكيف يلتذ عيشا لا يطيب له   وكيف تعرف طعم الغمض عيناه

وتقول مناشدة الجنة راغبة فيها، متلهفة إلى لقاء المولى عز وجل:

بوجهك لا تعذبني فإني   أؤمل أن أفوز بخير دار

منجدة مزخرفة العلالي   بها المأوى ونعم هي القرار

وأنت مجاور الأبرار فيها   ولولا أنت ماطاب المزار

ومن شعرها التعليمي الذي كان جزء من مذهب الصوفية والزهاد قولها:

تعود سهر الليل   فإن النوم خسران

ولا تركن إلى الذنب   فإن الذنب نيران

فكن للوحي درّاسا   وللقرآن أخذان

كما نجد لميمونة الشاعرة الزاهدة أشعار في المكاشفة منها قولها:

قلوب العارفين لها عيون   ترى ما لا يراه الناظرون

وألسنة بسر قد تناجي   بغيب عن الكرام الكاتبين

وأجنحة تطير بغير ريش   إلى ملكوت رب العالمين

فتسقيها شراب الصدق صرفا   ونشرب من كؤوس العارفين

وإلى جانب هؤلاء نجد طائفة من الشعراء التي لم تعرف الزهد في حياتها ولا مارسته وإنما قضت جل عمرها في الشرب والسكر والمجون ولكنها سجلت شعرا في الزهد والنصح في لحظات الصحو التي كانت تنتابها من حين لآخر دون أن تقلع عن

فعالها، ومنهم من أعلن توبته في أواخر حياته وعبر عن ندامته على ما فات من عمره في مجالس اللهو والشرب، ولعل أبا نواس كان واحدا من هؤلاء ، فقد جاشت نفسه المتحسرة على ما فاتها بأبيات شعرية رائعة مفعمة بالندم والحسرة على ذلك الماضي الغارق في المجون والاستهتار والضياع[1].

هذا وقد عدت أشعار هؤلاء الزهاد أساسا لطائفة جاءت من بعدهم هي طائفة المتصوفة التي ابتعدت بالشعر عن الأسلوب المباشر وعمدت إلى أسلوب رمزي غامض يكاد لا يفهم معانيه ومراميه إلا المتصوفة أنفسهم، ولعل أشهرهم ابن الفارض والحلاج والنفري وابن العربي الذين شكلوا مدرسة قائمة على لغة الرمز والإشارة، وكانت لبعضهم شطحات أدخلتهم في دائرة الحلول و أثارت حولهم جدل الدارسين وتأويلاتهم المختلفة ، وما زالت إلى اليوم تشغل الدارسين وتشكل رافدا هاما للتجربة الشعرية العربية المعاصرة .. [2]

2- **الشعر التعليمي**[3] :

هو فن من الشعر لم يعرفه الأدب العربي إلا مع بداية القرن الثاني الهجري، وهو الذي يصطنعه الشعراء عادة لنظم أنواع شتى من العلوم والمعارف تسهيلا لحفظها[4]. ومما لا شك فيه أن نشأة هذا الفن تقترن باتساع أنواع المعارف والعلوم وازدياد الإقبال على التعليم. وقد ارتبط الشعر التعليمي بسائر أغراض واتجاهات الشعر الأخرى، إذ كلها توجد فيه ناحية تعليمية حتى المجون والخمر والغزل .. أما التسمية فالمصطلح غربي مترجم ومن أوائل النقاد الذين استعملوه "طه حسين"[5].

---

1 – ينظر : الديوان – باب الزهد – 448 – 503.

2 – ينظر :أمين يوسف عودة – تجليات الشعر الصوفي قراءة في الأحوال والمقامات– المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت–الأردن ط1 – 2001 , (الفصل الأول: الشعر الديني و أثره في شعر المقامات والأحوال)

3 – شوقي ضيف – العصر العباسي الثاني – 246.

4 – ينظر : علي جواد الطاهر – الشعر العربي في العراق وبلاد العجم – دار الرائد العربي – بيروت – ط2 – 1985 – ص 439.

5 – علي جواد الطاهر – مقدمة في النقد الأدبي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ط2 – 1983 – ص 107.

أما عن أثر الثقافات الأجنبية في ظهوره، فالمعلوم أن اليونان عرفوه منذ القدم وكانوا من الأمم السباقة إليه، كما عرفه الهنود، وكان لهم ولع شديد به، حتى إن البيروني شكا من نظمهم لقواعد الرياضة والفلك، لأن ذلك يخرجهم أحيانا من ضبط القواعد وما يتطلبه من دقة في التعبير.

والملاحظ أن الثقافتين اليونانية والهندية عرفتا معا هذا الضرب من النظم، واتصلت كل منهما بالثقافة العربية، ولكن العرب كانوا أميل إلى الأدب الهندي لأنه أقرب إلى طبيعتهم كما أن العلوم التي تفردت بها الهند كالفلك والحساب كانت سببا في توثيق الصلة بين الثقافتين العربية والهندية هذا إلى جانب الشعراء المولدين من الهنود.

لذلك يكون من المرجح إقرار الأثر الهندي في نشأة الفن التعليمي في الشعر العربي، هذا إلى جانب الحاجة الطبيعية إلى انتشاره تبعا لانتشار حركة التعليم وحاجة المعلم والمتعلم إلى نوع من التأليف المدرسي يسهل نقل المعلومات وحفظها، فكان الشعر الوسيلة السهلة المشوقة في آن ،خاصة وأن العقلية العربية اشتهرت بقدرتها على حفظ الشعر وروايته. وقد عرف الشعر الجاهلي نماذج جاءت في النصح والتوجيه والتعليم كشعر زهير بن أبي سلمى، ولعل الشاعر رؤبة بن العجاج كان سباقا بأراجيزه، فقد جمع فيها كل غريب شاذ فكان أشبه بالمعجم اللغوي الذي اتخذه اللغويون مرجعا يحتجون بشعره، من ذلك قوله :

وخاتم الأعماق حاوي المخترق   مشبه الأعلام لماع الخفق
بكل وفد الريح من حيث انخرق   شأز عوده جذب المنطلق
شاء من التصبيح نائي المعتبق   تبدو لنا أعلامه بعد الغرق

إلا أن مثل هذه الأراجيز لرؤبة بن العجاج لا يمكن أن تجعل في إطار الشعر التعليمي بمعناه العلمي الدقيق لأنها وضعت من أجل علماء اللغة أنفسهم ليأخذوا منها ما لا يعرفونه من الغريب بخلاف الشعر التعليمي الذي يتوجه إلى المتعلمين ليسهل عليهم حفظ العلوم والمعارف. أما القالب الذي اختاره الشعراء لذلك الفن فكان في الغالب الرجز والمزدوج .

مجالات الشعر التعليمي : شمل نظم المعارف كل ما عرفه العصر من علوم نظرية وتطبيقية ، دينية ودنيوية أهمها:

– **علم الفلك** وفيه منظومات عديدة لـ : محمد بن إبراهيم الفزاري في الكون إذ كان عالما بالنجوم، منها قوله:

الحمد لله العلي الأعظم ذي الفضل والمجد العلي الأكرم

الواحد الفرد الجواد المنعم

خالق السبع العلا طباقا والبدر يملأ نوره الأفاقا

والفلك الدائر في المسير لأعظم الخطب من الأمور

يسير في بحر من البحور

فيه النجوم كلها عوامل منها مقيم دهره وزائل

فطالع منها ومنها آفل

– **وفي الطب** سجل إسحاق بن حنين قصيدة تعليمية في تاريخ الطب ورواده الأوائل الذين توارث الناس عنهم هذا العلم جيلا بعد جيل ،منها قوله:

أنا ابن الذين استودع الطب فيهم وسمي به طفل وكهل ويافع

مازال جالينوس يشفي صدورنا لما اختلفت فيه علينا الطبائع

والحي بن ماسويه وأهرن قبله لهم كتب للناس فيها منافع

ولابن سينا منظومة غاية في الطرافة والحسن تتجاوز ثلاثمائة بيت منها قوله :

الحمد لله المليك الواحد رب السموات العلي الماجد

والشعراء أمراء الألسن كما الأطباء ملوك البدن

هذا يسن النفس بالفصاحة وذا يطب الجسم بالنصاحه

– **وفي علوم اللغة** ينال النحو حصته الكبري، فقد رأى علماء اللغة بسبب فساد الألسنة ضرورة تحبيب اللغة إلى الناشئة ، وتحقيقا لتلك الغاية الشريفة وجدناهم ينظمون شعرا تعليميا في مدح النحو وربما كانت جهودهم الأساس الذي قامت عليه الألفيات والمنظومات النحوية فيما بعد ، من ذلك قول إسحاق بن خلف البهراني:

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تكرمه إذا لم يلحن

وإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منها مقيم الألسن

وللكسائي قصيدة في المعنى نفسه منها قوله :

إنما النحو قياس يتبع وبه في كل أمر ينتفع

فإذا ما أبصر النحو فتى مرّ في المنطق مرا فاتسع

فأتقاه كل من جالسه		من جليس ناطق أو مستمع

وإذا لم يبصر النحو فتى		هاب أن ينطق جبنا فانقطع

فتراه ينصب الرفع وما		كان من خفض ومن نصب رفع

يقرأ القرآن لا يعرف ما		حرف الأعراب فيه وصنع

والذي يعرفه يقرؤه		وإذا ما شك في حرف رجع

ناظر فيه وفي إعرابه		فإذا ما عرف اللحن صدع

كم وضيع رفع النحو وكم		من شريف قد رأيناه وضع

ولابن دريد منظومتان إحداهما "المقصورة" مدح فيها والي الأهواز وابنه، بنى قافيتها على الحرف المقصور، من 250 بيت قيل إنه ضمنها ثلث المقصور في اللغة، والثانية في المقصور والممدود من 57 بيت ، جمع فيها 57 كلمة مقصورة و57 كلمة ممدودة منها قوله:

لاتركنن إلى الهوى		واحذر مفارقة الهواء

يوما تصير إلى الثرى		ويفوز غيرك بالثراء

وللحريري منظومته المعروفة بـ "ملحة الإعراب"، ثم جاءت بعدها ألفية ابن مالك التي غطت على ما سواها سعة ودقة وسلاسة وسهولة وانتشارا.

- **وفي الفقه** نجد لأبان بن عبد الحميد اللاحقي مزدوجة (مثنوية) شرح فيها أحكام الصوم والزكاة يقول فيها :

قصيدة الصيام والزكاة		نقل إبان من فم الرواة

هذا كتاب الصوم وهو جامع		لكل ما قامت به الشرائع

من ذلك المنزّل في القرآن		فضلا على من كان ذا بيان

ومنه ما جاء عن النبي		من عهده المتبع المرضي

وبعضه على اختلاف الناس		من أثر ماض و من قياس

والجامع الذي إليه صاروا		رأي أبي يوسف مما اختاروا

والصوم في كفارة الإيمان		من حيث ما يجري به اللسان ...

- **التاريخ والسير** ومن ذلك منظومة الأصمعي في ذكر الملوك والجبابرة الهالكين والأمم البائدة ، ولعلي بن الجهم مزدوجة في التاريخ تقع في أكثر من 300 بيت (منذ بدء

الخليقة إلى زمانه) ، ولابن المعتز منظومة من 400 بيت في سيرة المعتضد منها قوله في حركة القرامطة وما أثارته من فتن وثورات :

واستمع الآن حديث الكوفة   مدينة بعينها معروفة

كثيرة الأديان والأئمه   وهمها تشتيت أمر الأمه ...

وإلى جانب نظم أبان اللاحقي في الفرائض، فقد نظم قصائد أخرى تعليمية في التاريخ منها تاريخ الفرس مثل سيرة "أرد شير" وسيرة "أنو شروان"، كما نظم في العقائد الفارسية والهندية، و كانت له جهود في صياغة الأسمار والأساطير الأجنبية في شعر تعليمي، من ذلك نظمه كتاب "السندباد "الهندي الأصل وكذا كتاب "كليلة ودمنة" الذي جعله أربعة عشر ألف بيت منه قوله :

هذا كتاب أدب ومحنه   وهو كتاب كليلة ودمنه

فيه دلالات وفيه رشد   وهو كتاب وضعته الهند

فهو صفو لآداب كل عالم   حكاية عن ألسن البهائم

وهو على ذلك يسير الحفظ   لذ على اللسان عند اللفظ

ومن باب الأسد والثور قوله :

وإن من كان دنيء النفس   يرضى من الأرفع إلى الأخس

كمثل الكلب الشقي البائس   يفرح بالعظم العتيق اليابس

وإن أهل الفضل لا يرضيهم   شيء إذا كان لا يعنيهم

ويذكر النديم في كتابه "الفهرست" أن كليلة ودمنة نظمه أيضا علي بن داود وبشر بن المعتمر، ونذكر من المنظومات التاريخية أرجوزة ابن المعتز التي يؤرخ فيها لبني العباس.

- **العقائد**: كما وسع الشعر التعليمي أنواع المعارف والآداب الشائعة في العصر العباسي، وسع كذلك المذاهب المختلفة التي عرفها العصر، فقد كان هناك علاقة متينة بين الشعر التعليمي والمذهبي.

ولعل أهم الشعراء المذهبيين السيد الحميري الذي لم يترك فضيلة معروفة لعلي إلا نقلها، من ذلك قوله في ولديه الحسن والحسين وقد لزما ظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو ساجد يقول:

أتى حسن وحسين النبي   وقد جلسا حجره يلعبان

فقفاهما ثم حياهما وكانا لديه بذاك المكان
فراحا وتحتهما عاتقاه فنعم المطية والراكبان
وليدان أمهما حرة حصان مطهرة للحصان
وشيخهما ابن أبي طالب فنعم الوليدان والوالدان

ومن ذلك قول الشافعي في إثبات مراتب القدر الأربعة :

ما شئت كان وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت ففي العلم يجري الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقي ومنهم سعيد ومنهم قبيح ومنهم حسن [1].

وقال السفاريني –رحمه الله– في "الدرة المضية"، فيما يجب اعتقاده في الذي جَرَى بين الصحابة –رضوان الله عليهم أجمعين–:

واحذر من الخوض الذي قد يزري بفضلهم مما جرى لو تدري
فإنه عن اجتهاد قد صدر فاسلم أذل الله من لهم هجر

و للرازي نظم أبيات في كتابه الذي صنفه في أقسام الذات، يحذر فيها من علم الكلام، ويرى أنه يؤدي إلى الحيرة والكفر منه قوله :

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وفي هذا الباب يؤكد الشهرستاني المعنى نفسه ويرى أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعًا كف حائر على ذقن أو قارعًا سن نادم

- **وفي الكمياء** : نجد لمؤيد الدين الطغرائي (المقتول سنة 515هـ) دفترًا خاصًا توارثته الأجيال باسم "مقاطيع –أو مقطعات– في الصنعة "، وفيه يتحدث بكلام موزون

1 – الشافعي – الديوان – جمع محمد عفيف زعبي، مكتبة المعرفة، الطبعة الثالثة : 1392هـ، ص 83.

مقفى عن الفضة والكبريت والزرنيخ والنحاس والزئبق، ويتحدث عن ماء الحياة فيقول :

يا أيها الباحث عن سرنا		مستعظما للأمر مستكبرا

انظر إلى ماء الحياة الذي		فيه أعاجيب لمن فكّرا

- **الزهد** :كما كان بعض أعلام الزهد في العصر العباسي أعلاما للشعر التعليمي يسخرونه لتجاربهم في الرضا بالقليل من الرزق والصبر على التعبد والتهجد...ولعل أبا العتاهية أبرزهم في هذا الميدان، من ذلك أرجوزته المشهورة المسماة " ذات الأمثال" التي تصور بصدق الناحية التعليمية في شعره المذهبي وهي قصيدة تهذيبية تشمل المواعظ والحكم ، يقف فيها موقف المعلم الحكيم منها :

ما انتفع المرء بمثل عقله		وخير ذخر المرء حسن فعله

إن الشباب والفراغ والجده		مفسدة للعقل أي مفسده

اصحب ذو عقل وأهل دين		فالمرء منسوب إلى القرين

إياك والغيبة والنميمه		فإنها منزلة ذميمه

لا تذهبن في الأمور فرطا		لا تسألن إذا سألت شططا

وكن من الناس جميعا وسطا

إلا أن هذا الاتجاه وإن ساهم في تيسير حفظ العلوم وتسهيلها على الناشئة فإنه لا يرقى إلى مستوى الشعر الخالد، وليس له من الشعر غير اسمه وإنما سمي شعرا على سبيل التوسع والمجاز. وقد كان لهذا النوع من النظم أثر خطير بعد ذلك على حركة الشعر العربي إذ أصبح في العصور المتأخرة النوع الوحيد الذي يسمى شعرا.

ثانيا : النثر في العصر العباسي[1]

مدخل إلى النثر العباسي:

تعددت فروع النثر العباسي تبعا لتنوع مجالات الحياة وتعددها، وانتشار العلوم والمعارف وجديد الإدارة، فهذا نثر علمي وذاك فلسفي وذاك تاريخي، وآخر نثر أدبي خالص. كما ارتبط في بعض صوره بالنثر القديم وكان امتدادا له، وعرف في بعض صوره الأخرى ابتكارا وتجديدا. وإذا كان الشعر إلى زمن سابق هو ديوان العرب فإن النثر في العصر العباسي يمكن اعتباره هو الآخر ديوان العرب الذي جمع مآثرهم وعلومهم وخلد الكثير من مظاهر حياتهم اليومية.

ففي أوائل العصر ازدهرت الخطابة ولكنها سرعان ما فترت بعض أنواعها لاسيما خطابة المحافل، وكذا الخطابة السياسية إذ توطدت أركان الملك العباسي ولم يعودوا في حاجة إليها.

أما سائر المجالات الخطابية فإن غلبة العجمة أثرت عليها، فلم يعد الخلفاء يخطبون إلا في الجمع والأعياد، وفي أخبار الرشيد أنّه عهد إلى الأصمعي أن يحفّظ ابنه الأمين خطبة يخطب بها في الناس يوم الجمعة. ولعل خطابة الوعاظ الوحيدة التي حافظت بعض الشيء على بقائها بين العامة والخاصة، فقد كان بعض خلفاء بني العباس يستقبلون الوعاظ ويوسعون لهم في مجالسهم أمثال المنصور و المهدى والرشيد.

وانتشر إلى جانب الخطباء جماعة من القصاص يقصون على الناس في المساجد الجامعة، وأشهرهم "موسى بن سيار الأسوارى" الذي أتقن العربية والفارسية، فكانت العرب تجلس على يمينه والفرس على يساره، فيقرأ الآية ويفسرها للعرب ثم يتحول إلى الفرس فيفسرها بالفارسية "فلا يدرى بأي لسان هو أبين" ومنهم عمرو بن قائد الذي ظل يفسر القرآن للناس ستّا وثلاثين عاما، ومنهم القاسم بن يحي

---

1 – ينظر : – عبد الله التطاوي – مستويات الحوار في فنون النثر العباسي –دار غريب للطباعة والنشر – القاهرة

– حسن الحاج حسن– أعلام في النثر العباسي– المؤسسة الجامعية للدراسات والنش– بيروت– ط1- 1413-1993

– زكي مبارك – النثر الفني في القرن الرابع – المكتبة العصرية – بيروت – 2006 – الجزء 1، 2.

– عمر الدقاق – أعلام النثر الفني في العصر العباسي – دار القلم العربي – ط1 – 2004.

الضرير وصالح المرّي... وفي هذا العصر اتسعت المناظرات الكلامية، وحمل لواءها المعتزلة من أصحاب واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، ولم يكن همهم الردّ على مخالفيهم من الجهمية القائلين بالجبر، والمرجئة القائلين بعدم جواز تكفير المسلم ولا الحكم على أعماله وإن ارتكب كبيرة، وإنما انصرف همهم إلى الردّ على الدهرية والزنادقة، وقد استطاعوا التأثير في المأمون حتى اعتنق فكرتهم وأعلنها عقيدة رسمية للدولة وأخذ يمتحن الناس فيها.

وقد نهض المتكلمون من معتزلة وغيرهم بالنثر العباسي نهضة قوية، إذ كانوا للاحتجاج لآرائهم يثقفون أنفسهم بثقافة فلسفية واسعة، يقول الجاحظ « ولا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام متمكنا في الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة، والعالم عندنا هو الذي يجمعها ».

فقد كانت المناظرة في موضوع من الموضوعات تنعقد أحيانا بين اثنين فتظل أياما ليس في أصول الدين أو الرد على الملحدين فحسب وإنما في كل موضوع يمكن أن يخطر على بالهما، وقد خص الجاحظ أكبر من مجلد من كتابه الحيوان بمناظرة كانت بين معبد والنظام في الكلب والديك وأيهما أفضل، والمناظرة هذه تدل على مدى ما أصابه المتكلمون من توزيع لأفكارهم وبلاغتهم، فما بالك بما كان يجري بين المتناظرين في مسائل الدين واللغة نحوها وصرفها[1].

وقد اندفع هؤلاء المتناظرون رغبة في إحكام المناظرات إلى البحث الواسع في بلاغة الكلام، وكيف يصل المتكلم بحديثه الكفاية وغاية الحاجة، وكيف يروع السامعين ببيانه وحلاوة ألفاظه وحسن مخارج حروفه، حتى تسكن إليه النفوس وتنقاد العقول، فكانوا يراعون الصوت والنبرة والحركة والإشارة واللفظة والأسلوب والبرهان والدليل والقياس والعلل وكل ما يمكن أن يؤثر في سماع المتلقي ويقوده إلى ما يؤمنون به ويرونه. وبين يدي هؤلاء المتكلمين بدأت تظهر مصطلحات بلاغية من تشبيه وحقيقة ومجاز وكناية واستعارة والتفات وحسن خروج واعتراض وتأكيد مدحٍ بما يشبه الذم وإيجاز وإطناب ومساواة واقتباس، إلى حدّ يمكن القول فيه إن هذه البيئة الفكرية والعلمية هي التي وضعت قواعد البلاغة والفصاحة، وهي التي أتاحت للعربية مرونة

---

1 – ينظر: عبد الله التطاوي – مستويات الحوار في فنون النثر العباسي – 71-94.

الأساليب لأداء أدقِّ المعاني، وهي التي ساهمت في ميلاد النموذج التعبيري العباسي البليغ، إذ كانت تنفي الألفاظ الوعرة من كلامها مثلما تنفى السوقي الساقط، وتختار لغة متوسطة تقوم على الألفاظ الرشيقة ذات المخارج السهلة، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيقى.

وبينما كان مذهب الوسطية قائما عند المتكلمين وكبار الأدباء والمترجمين، كانت طلائع مذهب ثان من التصنيع والتجميل تأخذ طريقها في بيئة الكتّاب الرسميين من أصحاب الدواوين، الذين راحوا يهذّبون رسائلهم السياسية غاية التهذيب ويبالغون في أناقة التعبير، فجاءوا بأسلوب كلّه قطع زخرفية، وكلّه سجع وتنميق، وكان على رأس هؤلاء ابن المقفّع وسهل بن هارون والجاحظ. وهذه بعض فنون النثر التي عرف بها العصر وتميز عن غيره من العصور.

1 - فن المقامات[1]

- **المقامة لغة**[2] : المقام والمقامة المجلس، ومقامات الناس مجالسهم، ويقال للجماعة يجتمعون في مجلس : مقامة : والجمع مقامات، ومقامات الناس : مجالسهم أيضا، والمقامة والمقام، الموضع الذي تقوم فيه، والمقامة : السادة وكل ما أوجعك من جسدك فقد قام بك.

و جاء في لسان العرب المقام موضع القدمين والمقام والمقامة بالضم الإقامة والمقامة بالفتح المجلس والجماعة من الناس.

- **المقامة اصطلاحا** : تطور مدلول اللفظة مع الزمن فكانت كلمة مقامة في العصر الجاهلي تعني مجلس القبيلة أو ناديها كقول أبي سلمى :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهها وأندية ينتاب ها القول والفعل

وأحيانا كانت الكلمة تتجاوز المكان إلى من يتواجدون فيه، فتعني الجماعة التي يضمها المجلس أو النادي كقول لبيد :

---

1 - للتوسع ينظر إكرام فاعور - مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن زيد - دار اقرأ - بيروت - لبنان

- وأحمد أمين مصطفى - فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي.

- موسى - الأدب القصصي عند العرب - دار الكتاب اللبناني - ط5 - 1983.

2 - ابن منظور - لسان العرب - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - مادة" ق.و.م ".

ومقامة غلب الرقاب كأنهم   جنٌّ لَدَى بَابِ الحَصِيرِ قيَامُ

ثم تطور مضمون الكلمة في العصر الإسلامي، وأصبحت تعني المجلس الذي يقوم فيه شخص بين يدي الخليفة أو غيره، ويقوم بوعظ الحاضرين، في السلوك والتهذيب، وأخيرًا أصبحت تعني المحاضرة سواءً أكان من يقدمها قائمًا أو قاعدًا. وقد جاء في كتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة فصل بعنوان "مقامات الزهاد عند الخلفاء" مثل مقام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور، وصالح بن عبد الجليل عند المهدي، وفي القرن الثالث الهجري انحرفت إلى الدلالة على كلام الشحاذين. لتصبح على يد بديع الزمان الهمذاني ذالك الحديث القصير أو الأقصوصة المعتمدة على الخيال، المصورة للواقع اليومي، في أسلوب مسجع، تدور حول بطل أديب شحاذ يحدث عنه رواية جوال.

وهكذا أصبحت الكلمة يتغير مدلولها حسب الظروف الغالبة في كل عصر استخدمت فيه، ففي العصر الجاهلي الذي يؤمن بالقبيلة والطائفية كان مدلولها اجتماعيا، وعندما تغلبت النزعة الدينية إبّان صدر الإسلام والدولة الأموية، اتجهت المقامات اتجاهًا دينيا يهتم بالوعظ والإرشاد وعندما تقدمت الفنون الأدبية خلال العصر العباسي الثاني، وتعددت ألوان الأدب بشعره ونثره واتجه الأدب إلى التفنن والإغراق في المحسنات اتخذت المقامات مدلولاً أدبيا وكان بديع الزمان الهمذاني أول من استخدم لفظ المقامات استخدامًا يقصد به جنسا أدبيا جديدًا زيد على الفنون الأدبية المتداولة في ذلك الوقت.[1]

و المقامة في الاصطلاح فن من فنون النثر الأدبي وهي في حقيقتها عرض لمهارة المؤلف اللغوية في قالب قصصي تغلب عليه روح الفكاهة، والجديد هنا في المقامات هو القالب الذي يعرض فيه المؤلف ثروته اللغوية، وقد عني بها قبل أصحاب المقامات كثير من علماء اللغة ومن هؤلاء اللغويين المبرد وابن ودريد وعبد الرحمن الهمداني، وأبو علي الفارسي ... والمقامات في حقيقتها عمل لغوي يقوم على سرد قصة ساذجة يتخفى بطلها ثم ينكشف أمره بعد قليل لصفات معينة فيه لا تختلف من قصة إلى أخرى، وتنحصر صفات هذا البطل في البراعة اللغوية والمهارة في

1 – بديع محمد جمعة – دراسات في الأدب المقارن – الطبعة 2 – 1980– دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت – 226-227.

الاحتيال طلبا للرزق وشخصية هذا البطل تتكرر في كل مقامة فهي جامدة لا تغير فيها ولا تطور ولا تبديل، فما في هذه المقامات من جدة في العرض وتنوع في الموضوعات لا يكفي لأنّ يجعل منها فنا قصيصا[1].

- **أصل المقامات :**

ذهب كثير من الدارسين إلى أنّ أول من ابتدع فن المقامات هو بديع الزّمان الهمذاني ثمّ تلاه أبو محمد قاسم الحريري الذي عمل مقاماته الخمسين المشهورة فجاءت نهاية في الحسن، يقول القلقشندي في صبح الأعشى : « إنّ أول من فتح باب عمل المقامات علاّمة الدّهر وإمام الأدب البديع الهمذاني ... ثم تلاه محمد قاسم الحريري فعمل مقاماته الخمسين ... وأقبل عليها الخاص والعام حتى أنست مقامات البديع وصيّرتها كالمرفوضة » ، ولم يخرج عن هذا الإجماع إلاّ صاحب زهر الآداب الذي رأى أنّ الهمذاني قلّد ابن دريد في أحاديثه الأربعين وتبنّى رأيه زكي مبارك في كتابه " النثر الفني في القرن الرابع الهجري". وإن شابهت المقامات أحاديث ابن دريد إذ يقوم كلاهما على حكاية مسندة ويعتمد السّجع إلاّ أن الأحاديث لم تلتزم أسلوب الحكي دائما، فهي تحتوي على النوادر والحكم والخطب والنّكت الأدبية واللّغوية.

و أوجه الاختلاف بينهما كثيرة منها أن للمقامات راوية واحد وبطل واحد يترددان في كل مقامة بينما أبطال الأحاديث متعددون، وغرض الأحاديث هو الإشادة بشمائل العرب ورسوخ قدمهم في الفصاحة ،بينما يغلب على المقامات الاحتيال والكدية، ثمّ إنّ الفن أرقى في المقامات منه في الأحاديث، صياغة ولغة.

ولو قلنا أنّ ابن دريد كان سباقا إلى هذا الفن لكان الأجدر بنا أن نعطي السبق للجاحظ الذي هو أوّل من تحدث عن أهل الكدية وألف كتابا في حيل اللصوص و المكدّين لا تكاد تختلف عن حيل بطل المقامات، لذا لا يمكن أن نقصر تأثر الهمذاني على ابن دريد لأنّه تأثر بكل من سبقه من الأدباء، وهذا أمر طبيعي، فاللاحق دوما يتأثر بالسابق ويضيف عليه، ولكنّنا ننتهي في الأخير إلى القناعة بأنّ منشئ هذا الفن في الأدب العربي هو بديع الزّمان الهمذاني، دون أن ننكر تأثره بمن تقدم. والرّاجح أنّ معرفة الهمذاني لم تأته عن طريق الجاحظ وابن دريد وغيرهما

---

1 - طه ندا - الأدب المقارن - دار النهضة العربية - بيروت - 1991 - 186.

فحسب، فقد كان للمشاهدة والاختيار والمعايشة أثرهما ،إذ عرف المجتمع العباسي جماعات من قطاع الطرق انتظمت وعرفت باسم "الفتيان" وهي فئة تكسب قوتها بالسّلب والنّهب، ومن هذه العصابة تفرعت طائفة عرفت بأهل الكدية امتهن أفرادها التسوّل امتهانا ارتضوه مذهبا في الحياة وعرفوا بالمكدّين أو السّاسانين.

وقد خرج من هذه الطائفة شعراء مجيدون أحيانًا وصفوا حياتهم وتجوالهم ونوادرهم فاستخفّهم النّاس، وتلهوا بأخبارهم ومغامراتهم ونوادرهم، واستأنس الأمراء والخلفاء بمعاشرتهم فقربوهم وأنزلوهم في بلاطاتهم. ولقد كان الصاحب بن عباد شديد الاهتمام بهؤلاء المتجوّلين المكدّين، شديد الولع بشعرهم، وأشهرهم أبو دلف الخزرجي. والمعروف أنّ الهمذاني نزل بلاط الصاحب بن عباد ومن غير المستبعد أن يفيد من هذه النّاحية الاجتماعية الأدبية، بل إن مقاماته تدل على إعجاب بذلك النّوع من الشّعر وأصحابه، ومن غير المستبعد أيضا أن تكون فكرة إنشاء المقامات مستوحاة من ذلك الجوّ وأن يكون بطله أبو الفتح هو أحد أولئك الذين لقيهم من المكدّين فقد احتوت مقاماته شيئا من شعر أبي دلف[1] (كالمقامة القريضية والدينارية) كما أنّ بعض مقاماته لا تعدو أن تكون نثرًا لبعض أشعار أبي دلف كالمقامة الرّصافية[2]. هذا إلى جانب تأثره بالشاعر أبي عبد الله الحسن بن أحمد الحجّاج فقد أغار على قاموسه في السّباب والشتم والسّخافة والسّخرية، وما المقامة الدينارية إلاّ نثر لأحد قصائد الشاعر في المعاني والتراكيب على حدّ سواء. وهكذا نجد المقامات تمتد لتتصل بالأدب العربي جملة، لا يقتصر ذلك على ابن دريد وأحاديثه فما هي إلاّ رافد من الروافد التّي انتهت إلى عالم المقامات وقد تضاربت آراء الدارسين حول عدد المقامات التي أنشأها الهمذاني بين قائل أنّها أربعون وبين قائل أنّها أربعمائة إلاّ أنّ الدارسين المتأخرين أجمعوا على أنّها لا يمكن أن تتجاوز الخمسين مقامة نظرًا للفترة الوجيزة التي كتبت فيها.

عناصر المقامة وخصائصها[3] : للمقامات خصائص وشروط لا تقوم إلاّ بها، أهمها :

---

1 – ينظر : بديع الزمان الهمذان – المقامات – دار المشرق – بيروت – ط9 – 65، و 217.

2 – المصدر نفسه – 157.

3 – عمر فروخ – تاريخ الأدب العربي – 415/2 وما بعدها.

1 - **المجلس**: يجب أن تدور حوادث المقامة في مجلس واحد لا تنتقل منه إلا في ما شذ وندر.

2 - **الراوية** : ولكل مجموع من المقامات راوية واحد ينقلها عن المجلس الذي تحدث فيه.

3 - **المكدي**: لكل مجموع من المقامات مُكْدٍ واحد أيضا، أو بطل، وهو شخص خيالي واسع الحيلة طليق اللسان ذو مقدرة في العلم، والدين والأدب وهو شاعر وخطيب، يتظاهر بالتقوى ويضمر المجون، يتظاهر بالجد ويضمر الهزل، وهو يبدو في الغالب في ثوب البائس إلا أنّه في الحقيقة طالب منفعة. وتنعقد المقامة غالبا بأن يجتمع الراوية بالمكدي في مجلس واحد، ويكون المكدي دائما متنكرًا، ولذلك قلما يفطن الراوية لوجوده إذا كان قد سبقه إلى المجلس أو لحضوره إذا حضر بعده، وتنحل عقدة المقامة بأن ينكشف أمر المكدي للراوية أو يكشف المكدي أمره للراوية أو عيانا للحاضرين في الأغلب، ولا يكشف المكدي أمره إلا بعد أن يكون قد نال من أهل المجلس مالاً أو أي غنم آخر ، بعد أن استدر عطفهم، وكثيرًا ما يعلم أهل المجلس أنه قد خدعهم وسلبهم، ولكنهم لا يُضْمرون له شرًا لأنّه أطربهم أو سلاّهم أو أفادهم .

4 - **الملحة والنكتة** : أو العقدة وهي الفكرة التي تدور حولها القصة المتضمنة في المقامة وتكون عادة فكرة طريفة أو جرئية ولكنها لا تحث دائما على الأخلاق الحميدة، وقد لا تكون دائما موفقة.

5 - **القصة** : لكل مقامة وحدة قصصية قائمة بنفسها وليس ثمة صلة بين المقامة و الأخرى إلا أن المؤلف واحد والراوية واحد والمكدي واحد، وقد تكون القصص من أزمنة مختلفة متباعدة وإن كان الراوية واحدًا.

6 - **موضوع المقامة** : موضوعات المقامات مختلفة منها الأدبي ومنها الفقهي ومنها الفكاهي ومنها الحماسي، ومنها الماجن ومنها اللغوي والنقدي ...، وهذه الموضوعات تتوالى على غير ترتيب مخصوص عند بديع الزمان، أما الحريري فالتزم أن تكون الموضوعات متعاقبة على نسق مخصوص، وقد تكون المقامة طويلة أو قصيرة.

و لكن الموضوع الرئيسي في المقامات هو الكدية، ولأصحاب هذه الحرفة حيل وأساليب وحصيلة واسعة من اللغة ينالون بها الإعجاب ويستخرجون بها الدراهم

والدنانير من جيوب المستمعين ويعرض هذا الحريري في المقامة الكوفية[1] على لسان أبي زيد السروجي فيقول :

وإنما له فنون سحر أبدعت فيها واقتديت
لم يحكها الأصمعي فيما حكى ولا حكاها الكميت
تخذتها وصلة إلى ما تجنيه كفي متى اشتهيت
ولو تعافيتها لَحَالت حالي ولم أحو ما حويت
فمهد العذر أو فسامح إن كنت أجرمت أو جنيت

وهذه الكدية عند أصحابها خير الحرف ولها على ما عداها من الحرف والمهن مزايا وفضائل، ويغري أبو زيد السروجي ابنه في المقامة الساسانية باقتفاء أثره في مزاولة هذه المهنة لأنها في رأيه « متجر لا يبور، ومنهل لا يغور، وأهلها أعز قبيل، وأسعد جيل لا يرهقهم مس خفيف حيف ولا يقلقهم سل سيف ولا يرهبون من برق ورعد ولا يحفلون بمن قام وقعد، أنديتهم منزهة، وقلوبهم مرفهة، لا يتخذون أوطانًا ولا يتقون سلطانًا ... ».

ويتابع أبو زيد نصحه لابنه حين سأله أن يبين له الوسيلة المؤدية إلى النجاح في هذه الحرفة قائلا : « بين لي كيف أقتطف ومن أين تؤكل الكتف »، قال : "يا بني إن الارتكاض بابها والنشاط جلبا بها، والفطنة صباحها، والقصة سلاحها، اقدح زند جدك بجدك، وأقرع باب رعيك بسعيك ولا تسأم الطلب ولا تمل الدأب. فقد كان مكتوبا على نص شيخنا ساسان من طلب طلب ومن جال نال..."، وينصحُه أيضا أن يكون في مكر الثعلب، وفطنة إياس، ومجانة أبي نواس، وطمع أشعب، وأن يغلب الناس بصوغ اللسان، ويخدعهم بسحر البيان، وإذا خير بين درة منقودة، وذرة موعودة، فليمل إلى النقد ويفضل اليوم على الغد، ولا يستثقلن الرحلة ولا يكرهن النقلة "فإن أحلام شريعتنا وأشياخ عشيرتنا أبدعوا على أن الحركة بركة[2]".

7 – **اسم المقامة** : مأخوذ عادة من قرائن عديدة تتصل بالمقامة منها التي سميت باسم البلد الذي انعقد فيه مجلس المقامة نحو : (المقامة الدمشقية، التبريزية، الرملية، (نسبة

---

1 – الحريري – شرح المقامات – تحقيق وشرح يوسف بقاعي – دار الكتاب اللبناني – ط2 – 40-41.

2 – الحريري – شرح المقامات – 405-413.

إلى الرملة بفلسطين)، المغربية، السمرقندية، البلخية، الكوفية، البغدادية، العراقية، الخ ...) ومنها التسمية المأخوذة من الملحة التي تنطوي عليها المقامة نحو المقامة الدينارية، الجزْرية، الشعرية، الإبليسية، الخمرية ..الخ ".

8 - **شخصية المقامة** : إن الشخصية التي تبدو في المقامة ليست شخصية المكدي ولكنها شخصية المؤلف، وتنبني هذه الشخصية على الدراية الواسعة بكل شيء يطرقه المكدي أو المؤلف على الأصح، فهو واسع الإطلاع على علوم العربية خاصة، بصير بالفنون الأدبية من شعر ونثر وخطابة، حاد الذهن قوي الملاحظة في حل الألغاز وكشف الشبهات، مرح طروب في اجتياز العقبات وسلوك المصاعب.

9 - **الصناعة في المقامات** : فن المقامات فن تصنيع وتأنق لفظي (وخصوصًا عند الحريري) فهناك إغراق في السجع وإغراق في البديع من جناس وطباق، وإغراق في المقابلة والموازنة وفي سائر أوجه البلاغة حتى مالا يدخل في باب البلاغة على وجه الحصر، كالخطبة التي تقرأ طردًا وعكسًا والخطبة المهْملة "التي لا نُقط فيها" والتي تتعاقب فيها الأحرف المهملة والأحرف المنقوطة وما إلى ذلك.

10 - **الشعر** : المقامة قصة نثرية ولكن قد يتخللها شعر قليل أو كثير من نظم صاحبها على لسان المكدي، أو من نظم بعض الشعراء فيما يروى على لسان المكدي أيضا، وقد يكون إيراد الشعر لإظهار المقدرة في النظم أو لإظهار البراعة في البديع (عند الحريري خاصة) [1].

- **أهداف المقامات** :

إذا كان القدامى يقفون بالمقامات عند الكدية فإنّ المتأمل بها يرى أغراضا أخرى كثيرة وإن كان الهدف الرئيسي هو الكدية وأهم تلك الأغراض :

1 - **الكدية** : وهي موضوع المقامات أصلا فكيفما قلب المرء بصره وفكره تمثلت له صورة الاسكندري شيخ المكدين واقفا في النّاس يحتال عليهم يدفعهم للبذل والعطاء بأسلوب بليغ مبين ولا تنتهي مراحل ذاك الاحتيال إلا عندما ينتفخ الكيس ليبدأ مرحلة أخرى.

1 - تاريخ الأدب العربي عمر فروخ، ج1، ص 415.

2 – **التعليم وإظهار المقدرة اللغوية** : تنم المقامات على مقدرة لغوية وطول باع وإلمام بالمفردات العربية ورسوخ قدم في تراكيبها ومذاهب الكلام فيها شعرا ونثرًا، فقد كان الهمذاني يعتمد على المفردات الصعبة والحوشية أحيانا ويغرق في التراكيب المعقدة. وقد وافق حبّ الظهور هذا غاية المقامات التعليمية، فكثيرًا ما نجد استرسالا في ذكر المفردات الغريبة والتعابير المختلفة الوجوه كالمقامة الحمدانية، و من ذلك تعداد الهمذاني في المقامة الحميدية[1] أوصاف الفرس مبرزا معرفته بالخيل وأصنافها وإحاطته بالمفردات الغريبة كأن يقول في الفرس : طويل الأذنين واسع المراث غليظ الأكراع ضيق القلب واسع الشّحر بعيد العشر يأخذ بالسّابح ويطلق بالرّامح... ثم يفسّر ذلك تباعا كأنّه يشرح متنا لغويا، وكذلك فعل في المقامة الرصافية و الدينارية. إذ يذكر في الأولى حيل اللّصوص فيأتي على معظم مصطلحات الصعلكة والاحتيال، وفي الثانية يعرض للغة أهل السوء في شتائمهم وما يجري في معرضها من إشارات وأمثال سائرة لا تفهم إلاّ بعد لأي .

3 – **النّقد الأدبي** : لم يفت أصحاب المقامات عرض معلوماتهم وآرائهم في الأدب وعلوم العربية، ففي المقامة العراقية للهمذاني نجد أحاج وألغاز ترمز إلى بعض الأبيات السائرة، يسأل عيسى بن هشام أبا الفتح الاسكندري عن البيت الذي لا يمكن لمسه والبيت المهين بحرف والرهين بحذف ؟ .. وفي هذا يبدو البديع مقلدا يسير على سنّة الأولين في الاهتمام بالبيت الواحد. وكذلك فعلّ في المقامة القريضية حيث يعرض لخصائص الشعراء المشهورين كامرئ القيس وطرفة والنّابغة وزهير والفرزدق وجرير. ويحاول الموازنة بين الشعراء المحدثين والقدامى ليُرشح القدامى. وللحريري مقامة كاملة خصصها لانتقاد الجاحظ هي المقامة الجاحظية التي يقول فيها : "... إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ولم يزر كلامه بشعره. فهل تردون للجاحظ شعرًا رائعًا ؟ قلنا : لا قال : فهلموا إلى كلامه، فهو بعيد الإشارات قليل الاستعارات قريب العبارات، منقاد لعريان الكلام .. فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة ؟ ..."

1 – الهمذاني – المقامات – 151 – 156.

4 – **النّقد الاجتماعي**[1] : إن المتصفح للمقامات يفطن لذلك الجانب الاجتماعي المليء بالمتناقضات والغرائب والمفارقات، ويجد في بعضها لوحات موحية تصوّر مختلف طبقات المجتمع في كثير من الأمصار الإسلامية. فترصد اللّصوص في شتى حيلهم ،والمنافقين وكيف يظهر الواحد منهم بوجهين، ولعلّ أبرز مثال لهذه الطائفة المقامة الخمرية. وفي بعض المقامات نقمة على بعض القضاة المحتالين المتخذين من المهنة مطية للاحتيال، وقد جسّد الهمذاني ذلك في مقامته النيسابورية التي نقتطف منها قوله : « كنت يوم جمعة. فحضرت المفروضة ولما قضيتها اجتاز بي رجل قد لبس بنية وتحنكَ سنية، فقلت لمصلّ بجنبي : من هذا ؟ قال هذا سوس لا يقع إلاّ في صوف الأيتام و جراد لا يقع إلاّ على الزرع الحرام. ولصّ لا ينقب إلاّ خزانة الأوقاف وكردي لا يغير إلاّ على الضّعاف وذئب لا يفترس عباد الله إلاّ بين الركوع والسُّجود ومحارب لا ينهب مال الله إلاّ بين العهود وقد لبس دنيته وخلع دينيته وسوى لسانه وحرّف يده ولسانه وأبدى شقاشقه وغطّى مخارقه. بيض لحيته وسود صحيفته وأظهر ورعه وأسرّ طمعه ... ». ولم تخف على كتاب المقامات تلك الفئة الحديثة الثَّراء بعد عوز وفاقة، فقد تحدّث عنها الهمذاني وعالج آفة غرورها وكبريائها وعجبها بروح فكهة ساخرة تجلت بوضوح في مقامته المضيرية. وإن مقامات الهمذاني والحريري تعبّر بشكل أو بآخر عن ذلك الواقع الاجتماعي المزري أين ازداد الأغنياء غنى والفقراء فاقة، وأين ظهرت طائفة المكدين تلك التي لا عمل لها غير نهب أموال النّاس غدرًا واحتيالاً، وغير ذلك من الانحرافات التي سادت المجتمع العبّاسي في أواخر أيامه، ووجدت في المقامات عينا ترصدها وتخلدها ...

5 – **الوصف** : لبس الوصف في المقامات أثوابًا شتى فتارة يأتي في ثنايا السّرد دون أن يقصده الكاتب وتارة يتعمده وينساق إليه انسياقًا. فهناك مقامات خصصت للوصف وليس فيها من فنّ المقامة غير الإطار كالمقامة الحميدية للهمذاني التي نجد فيها وصفًا دقيقًا مفصلا للخيل ومزاياها واندفاعها وسائر طباعها وصفاتها كما نجد شرحًا لتلك الصّفات .. وفي المقامة المغزلية للهمذاني نجد وصفًا هو أقرب إلى الأحاجي والألغاز، تناول فيه وصف المغزل والمشط، وفي المقامة الأسدية وصف طريف لمغامرة تروي مهاجمة أسد لركب كان بينهم عيسى بن هشام. فما كادوا

---

1 – ينظر : – مازن المبارك – مجتمع الهمذاني – من خلال مقاماته – دار الفكر – ط2 – 1401– 1981.

ينجون منه بعد موت رفيق لهم حتّى ابتلوا بفارس أحكم فيهم بسهامه، وفي المقامة الجاحظية وصف دقيق لرجل شره للطعام، يقول : « ... ومعنا على المائدة رجل تسافر يده على الخوان. وتسفر بين الألوان وتأخذ وجوه الرغفان، وتفقأ عيون الجفان .. وتجول في القصعة كالرخ في الرقعة. يزحم اللّقمة باللّقمه ويهزم بالمضغة المضغة .. ». وقد يكون لهذه البراعة والدّقة في الوصف علاقة بإظهار المقدّرة المشار إليها سابقًا.

6 - **الدّين** : نقل الهمذاني في بعض مقاماته ذلك النّقاش والجدل الذي كان قائمًا بين مختلف الفرق، ظهر ذلك بوضوح في المقامة "المارستانية" و "الحلوانية". ففي المارستانية دخل البطل مارستان ومعه أبو داود المتكلم فالتقيا بمجنون استشاط غضبًا حين علم بأمرهما لأن أبا داود كان معتزليًا وابتدرهما قائلا : « شاهت الوجوه وأهلها !إن الخيرة لله لا لعبده، والأمور بيد الله لا بيده وأنتم يا مجوس هذه الأمّة تعيشون جبرا، وتموتون صبرا، وتستاقون إلى المقدور قهرا .. وتقولون خالق الظلم ظالم، أفلا تقولون خالق الهلك هالك أتعلمون أنكم أخبث من إبليس دينا. قال : "ربّ بما أغويتني" فأقرّ وأنكرتم ، وآمن وكفرتم .. يا أعداء الكتاب والحديث بم تطيرتم ؟ أبالله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ يا مخانيث الخوارج ترون رأيهم إلاّ القتال ..» ويقف في المقامة الحلوانية مادحًا للخط السنّي ...

إلى جانب تلك المناظرات الكلاميّة التي حوتها بعض المقامات بين مختلف الفرق، نجد في بعضها الآخر وعظا وتذكيرًا بالآخرة ودعوة إلى صالح الأعمال. ففي المقامة الأهوازية للهمذاني يلتقي البطل ورفاقه برجل يحمل جنازة فتطيروا فصاح بهم: « ... ما لكم تطيرون من مطية ركبها أسلافكم وسيركبها أخلافكم أما والله لتحملّن على هذه العيدان إلى تلكم الديدان .. ويحكم تطيّرون كأنكم مخيرون وتكرهون كأنكم منزهون.. فلو لم يكن الموت لم تمرحوا وإن نسيتموه فهو ذاكركم وإن نمتم عنه فهو فاكركم وإن كرهتموه فهو زائركم ... ».

7 - **التّكسب**: كان الهمذاني من أصحاب التكسّب والجمع، يرد المدن متكسبًا كبطله أبي الفتح فقد استخدم هذا الفنّ الذي ابتدعه لجمع الأموال مسخرا فن النثر

للمديح[1] ، وألف ست مقامات في مدح أمير سجستان خلف بن أحمد وهي "النيسابورية" ،"الناجمية"، "الملوكية"، "الخلفية"، "السارية"، "التميمية"، يقول في المقامة النّاجمية على لسان ضيف كان يقصد الأمير خلف : « .. سألوا الضيف قائلين : فمن أين طلعت وأين تغرب وما الذي يحدو أملك أمامك ويسوق غرضك قدامك : قال : أما الوطن فاليمن وأما الوطر فالمطر، وأمّا السائق فالضرّ والعيش المرّ. قلنا فلو أقمت في هذا المكان لقاسمناك العمر فما دونه ولصادفت من الأمطار ما يزرع ومن الأنواء ما يكرع، قال : ما أختار عليكم صحبًا ، ولقد وجدت فناءكم رحبًا ولكن أمطاركم ماء والماء لا يروي العطاش. قلنا : فأي الأمطار يرويك ؟ قال : مطر خلفيٌّ وأنشأ يقول :

مولاي أي رذيلة لم يأتها ... خلفُ وأي فضيلة لم يأتها

ما يسمع العافين إلاّ هاكها ... لفظ وليس يجاب إلاّ هاتها

إن المكارم أسفرت عن أوجه ... بيض وكان الخال في وجناتها

بأبي شمائله التي تجلو العلا ... ويدا نرى البركات في حركاتها

من عدّها حسنات دهر إنني ... ممن يعدّ الدّهر من حسناتها.

وهذه المقامات المدحيّة تدل دلالة واضحة على أن النثر أخذ يزاحم الشعر في أغراضه مثلما زاحم الشّعر النثر في موضوعات شتّى.

ختاما فإن كل تلك المزايا الأسلوبية والموضوعية التي أحلت الهمذاني والحريري في مقدّمة أهل السّجع لا تكفي وحدها لبلوغ تلك المنزلة وتلك الشّهرة التي حققتها المقامات وتلك الرتبة التي تسنماها لولا ذلك النفس من الظرف والدعابة والتي لا يخلو بعضها من عبرة أو حكمة ويكفي المقامات أن كثيرًا من عباراتها غدت تعابير سائرة يتمثل بها النّاس إلى أيامنا.

ثمّ إن هذا الفنّ النّثري الجديد ساهم إلى حدّ بعيد في حفظ اللّغة العربية في زمن كثر فيه اللحن فكانت بمثابة المعجم الضخم الذي احتفظ لنا بالكثير من الألفاظ العربية وشروحها أحيانًا. كما كان فن المقامات مساهمة واضحة في النقد

1 – فقد عرف العصر العباسي تنافسا بين الكتاب والشعراء وتداخلا بين فنون الشعر والنثر ، وتطويع الشعر لموضوعات النثر، وتطويع النثر لموضوعات الشعر .

والإصلاح الاجتماعيين وكثيرا ما توفرت فيها جلّ مقومات القصّة من حبكة وشخصيات وعقدة ومن أشهر الذين كتبوا في المقامات بعد هذين العلمين :

* مقامات الزمخشري (ت 538هـ/1143م) وهي 50 مقامة يحث فيها نفسه على المضي على السراط المستقيم.
* المقامات الزينية لزين الدين بن صقيل الجزري (ت 701هـ) وهي 50 مقامة عارض بها مقامات الحريري.
* مقامات الرازي وهي 12 مقامة.
* ابن الاشتركوني (ت 958هـ) سماها المقامات السرقسطية وهي 50 مقامة. وكلهم اخفقوا في تقليد الحريري ولم يستقم ذلك إلاّ للشيخ ناصيف اليازجي في مقاماته مجمع البحرين.

- قيمة المقامات :

إن فن المقامات فن أدبي معبر مصور، تختلف قيمته الأدبية باختلاف الكتاب الذين عالجوه وباختلاف أزمنتهم التي عاشوا فيها، فمنهم من ارتفع به إلى مستوى أدبي رفيع. وبديع الزمان الهمذاني سيد هؤلاء في نظرنا، فقد كانت مقاماته مرآة ناصعة انعكست عليها الحياة بمناحيها المختلفة من اجتماعية، وأدبية، وعقلية، وحتى أخلاقية من بعض الوجوه، فمقاماته مرآة لحضارة عصره، بضروبها المختلفة، ومظاهرها المتباينة ومشاكلها القائمة. أما مقامات الحريري فهي دون مقامات البديع في القيمة الأدبية وليس في القيمة الإنشائية إذا اعتبرنا أن مقامات الحريري لم تحاول أن تنفذ إلى أعماق الحياة في ذلك العهد فتصورها تصويرًا يجعلنا نرى فيها أحوال ذلك العصر فنحس آلامهم وآمالهم، ولعل قيمتها الواضحة تتجلى في أنها عالجت بعض المواضيع اللغوية والنحوية والوعظية فدلنا بعض ذلك على أن الناس ما سلّموا بعبقرية الحريري ونبوغه إلا لأنهم كانوا ينظرون إلى الموضوعات التي عالجها على أنّها ذات قيمة، وتدل كذلك على أنّ همّ العلماء يومئذ من الأدب كان يتمثل في العناية الشديدة المفرطة بالمناحي الشكلية وإثقالها بألوان من المحسنات البديعية. وإن كنا لانعدم بعض العناصر الأخرى التي أشار إليها الحريري في مقاماته إشارات عابرة، كما نجده في المقامة الإسكندرية يلمح إلى بعض الشروط التي كانت مطلوبة في الزوج الكفء للفتاة ذات الأرومة الطاهرة...

إن المقامات لم تكن سلبية الأهداف في جميع الأحوال علما أن كثيرا منها يعلّم ألوانا من الحيل التي كان يمكن أن تعود بشيء من الأذى على المجتمع، ولكن لقائل أن يقول : لم لا تكون تلك الحيل المدبرة في المقامات، وتلك الشعوذات القائمة فيها لونا من النقد أو التهذيب العكسي ؟ فإن النفس الخيرة المهذبة تأبى أن تأتي تلك الحيل الدنيئة من أجل نيل لقمة العيش ، ولعل الأقدمين لم يكونوا ينظرون إلى قيمة مقامات الحريري إلا على أنّها أداة لتهذيب النفوس، وجراب مليءٌ بالتجارب والخبرات وبعض ذلك ما نفهمه من قول الشريسي في معرض حديثه عن مقامات الحريري فقد ذهب إلى أن القصد منها تمرين الطالب وتهذيبه وتزكية عقله، وأن يكتسب تجارب الدنيا من حكايات السروجي، فيكون متنبها لما يطرأ عليه من النوازل، فتؤمن على عقله الغفلة . "فقد كان الأقدمون ينظرون إلى حكايات السروجي ومقاماته نظرة حسنة، وأن المقصود منها ليس الحث على التواكل والكسل، وإنما تهذيب الطالب وتذكية عقله وإكسابه تجارب وخبرات يتسلّح بها في استقبال نوازل الحياة، حتى لا يكون مغفلاً ساذجا مخدوعًا"[1].

2 - **فن التوقيعات** [2]:

التوقيعات **لغة** مشتقة من التوقيع في الكتاب وهو إلحاق شيء فيه[3]، جاء في مقاييس اللغة "و وقع الغيث، سقط متفرقاً، ومنه التوقيع، ما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه"[4] وعرفه صاحب الصحاح بأنه " ما يوقع في الكتاب، "[5] وجاء في التاج أن التوقيع "مشتق من الوقوع لأنه سبب وقوع الأمر المذكور، أو لأنه إيقاع لذلك المكتوب في الكتاب، فتوقيع كذا بمعنى إيقاعه"[6] وجاء في لسان العرب عن "الأزهري" " توقيع

1 - عبد المالك مُرتاض – فن المقامات الأدب العربي – الطبعة الثانية – الدار التونسية – للنشر – 1988 - ص 521-526.

2 - ينظر : ابن عبد ربه — العقد الفريد و الثعالبي- خاص الخاص و الجهشياري — الوزراء والكتاب ...

3 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، عبد الحميد الهنداوي ، باب الواو ، مادة وقع، دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان، ط1 (1424هـ-2002م)، ج4، ص392- 393.

4 - أحمد بن فارس، مقاييس اللغة ، تح عبد السلام هارون، دار الجيل (بيروت)، (د .ط)، (د. ت)، ج6،ص134

5 - الرازي، مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، دار الحديث، (د .ط)، (د .ت)، ص732.

6 - الزبيدي تاج العروس من جواهر القاموس, دار الفكر, ط1 (1414هـ-1994م),ج11, ص526

الكتاب، أن يحمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة، ويُحذف الفضول، وهو مأخوذ من توقيع الدّبر ظهر البعير، فكأن الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب الكتاب فيه ما يؤكده و ويوجبه"[1]

أما **اصطلاحا** فهي ما يوقعه كاتب على القضايا أوالطلبات المرفوعة إلى الخليفة أو السلطان أو الأمير.

يقول "البطليوسي" " وأما التوقيع فأن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك، أو من له أمر و نهي في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أوفي عرضه بإيجاب ما يسأل أو منعه، كقول الملك: يُنفّذ هذا إن شاء الله، أو هذا صحيح، وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب، لترد على هذا ظلامته أو لينظر في خبر هذا أو نحو ذلك"[2]

وعرّفه "القلقشندي" بأنه: " الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر من أمرالولايات و المكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة أو التحدث في المظالم." [3]

"ابن خلدون" فقد عرفه بقوله " ومن خطط التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القَصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها،ملقاة على السلطان بأوجز لفظ و أبلغه، فإما أن تصدر كذلك، إما أن يحنو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه." [4]

و سرعان ما تتطور دلالته في العصر العباسي، ويكتسب معنى أدبياً فيطلق على تلك " الأقوال البليغة الموجزة المعبرة التي يكتبها المسؤول في الدولة، أو بأمر كاتبها على ما يرفع إليه من قضايا أو شكايات متضمنة ما ينبغي اتخاذه من إجراء نحو قضية أو

---

1 – ابن منظور، لسان العرب، تح أحمد حيدر، باب الواو، مادة وقع، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 (2005)، ج ، ص371.

2 – البطليوسي، الاقتضاب، في شرح أدب الكتاب تح عبد الله أفندي البستاني، المطبعة الأردنية بيروت، (د.ط)، (1907)، ص101 .

3 – القلقشندي، صح الأعشى في صناعة الانشاء، دار الكتب المصرية، القاهره، (د.ط)، (1340 هـ - 1992)ج1، ص110.

4 – ابن خلدون، المقدمة، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، ط5 (1402هـ - 1982م)، ص247.

مشكلة، وهي بهذا المفهوم أشبه ما تكون بتوجيه المعاملات الرسمية في الوقت الحاضر"[1].

التوقيعات فن أدبي من فنون النثر العربي نشأ في حضن الكتابة وارتبط بتطورها وازدهارها، لذلك لم يعرف عرب الجاهلية التوقيعات الأدبية ولم تكن من فنونهم لسبب يسير وهو أن الكتابة لم تكن شائعة بينهم بل كان من يجيد الكتابة قلة نادرة لذلك نجد الأدب الجاهلي يتضمن الفنون القولية الشفاهية خاصة، القائمة على ذلاقة اللسان والبراعة في الإفصاح والبيان، كذلك لم تعرف التوقيعات في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأن الكتابة لم تكن شائعة بعد ولعل أقدم توقيع في تاريخ الأدب العربي ما كتب به أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد – رضي الله عنه – حين بعث للصديق خطابا من دومة الجندل يطلب أمره في شأن العدو فوقع أبو بكر« أدن من الموت توهب لك الحياة » ونسبت البدايات أيضا إلى عمر بن الخطاب حين وقع لسعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – : « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » وليس هذا بغريب لما عرف عن العرب من الإيجاز المفيد حين تدعو الحاجة خلافا لمن نسب بداية التوقيعات وإنشاءها للفرس.

والتوقيع عبارة بليغة موجزة مقنعة تصدر عن أحد رجالات الدولة (خليفة ،أو أمير أو وزير...) في الرد على ما يرد إليه من رسائل تتضمن قضية أو شكوى أو مسألة، وقد يكون التوقيع آية قرآنية أو حديثا نبويا أو بيتا شعريا أو حكمة أو مثلا أو قولا سائرا، يأتي ملائما للحالة التي وقع فيها.

وفي العصور الوسطى أضيفت إليها دلالة جديدة ، حيث أصبحت تطلق على الأوامر والمراسيم التي يصدرها السلطان أو الملك لتعيين أو عزل أو شكاية...وللتوقيع الأدبي مقاييس وشروط تسلكه في هذا الفن أهمها:

1- الإيجاز في غير إخلال بالمعنى، بل يجب أن يكون قليل اللفظ غزير المعنى، وبالغ بعضهم في ذلك بأن جعله حرفا أو نقطة كما فعل الأديب الوزير الصاحب بن عباد[2].

---

1 – أحمد بن ناصر الدخيل، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي و الأموي والعباسي، (د.ط)، (د.ت)، ص08.

2 – الكلاعي – إحكام صنعة الكلام – 161 .

2- البلاغة: بأن يأتي مناسبا للحالة أو القضية التي قيل فيها.

3- الإقناع : أن يتضمن وضوح الحجة وسلامتها ما يحمل المرسل على التسليم، ومن قوة المنطق وبراعته ما يقطع على صاحب الطلب عودة المراجعة.

وقد شاعت التوقيعات في عهد عثمان وعلي –رضي الله عنهما- لشيوع الكتابة وامتد هذا الشيوع بصورة أوسع في عصر بني أمية حيث اعتاد كل خليفة أن يوقع كل الرسائل التي ترد إليه بعد أن يطلع عليها ويعرف مضمونها، ووصلت إلينا توقيعات كافية تعد نماذج لتوقيعات الخلفاء في ذلك العصر بدءً بمعاوية وانتهاء بمروان بن محمد آخر خلفاء الدولة في المشرق ولم يقتصر هذا الفن على الخلفاء بل مارسه الأمراء والولاة والقواد كزياد بن أبيه والحجاج. من توقيعات خلفاء بني أمية توقيع هشام بن عبد الملك في قصة متظلم:« أتاك الفوت إن كنت صادقا وحلّ بك النكال إن كنت كاذبا فتقدم أو تأخر ».ووقع يزيد بن الوليد إلى والي خراسان :« نجم أمر أنت عنه نائم وما أراك منه أو منى بسالم »[1]ومن توقيعات الحجاج ما وقع به في قصة محبوس ذكروا أنّه تاب:«ما على المحسن من سبيل ».

أمّا توقيعات العصر العباسي فالحق أن هذا الفن لم يكتب له حظ الذيوع والانتشار إلا في هذا العصر وذلك حين ازدهرت الكتابة الفنية وتعددت أغراضها وحلت محل الخطابة في كثير من شؤون الدولة وقضاياها، وأصبح الكاتب البليغ مطلبا من مطالب الدولة تحرص عليه وتبحث عنه لتسند إليه تحرير المكاتبات وتحبير الرسائل وفي هذه البيئة الفنية الخصبة ازدهرت التوقيعات وأنشئ لها ديوان خاص.

وللتوقيعات أنواع فمنها ما يُوقع بآية قرآنية كما وقع المهلبي لصديق له كان أعانه في السابق : « مثل الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء » والتوقيع بألفاظ القرآن حسن في الجد من الأمور محضور في المزح والملاطفات، وقد يكون أيضا بيت شعر مثل ما وقّعه سليمان بن عبد الملك جوابا لتهديد قتيبة بن مسلم الباهلي إياه بالخلع :

1*- الكلاعي – إحكام صنعة الكلام- .161

1- قال ابن خلدون – من خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأخصر عبارة.

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

وقد يكون حكمة فمن ذلك ما وقع به السّفاح في رقعة قوم شكوا احتباس أرزاقهم :« من صبر الشدّة شارك في النعمة ».

ومن قبيل هذا ما وقع به هارون الرشيد على رقعة بعثها نقفور حاكم الروم مهددا للرشيد.

تذكر كتب التاريخ كالبداية والنهاية، أن الروم نقضوا الصلح بينهم وبين المسلمين الذي عقده الرشيد مع ملكة الروم وذلك أن الروم عزلوها وولّوا عليهم نقفور وكان شجاعًا فكتب إلى الرشيد:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أمّا بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثاله إليها ... ، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد إلي ما حملته إليك من الأموال وافتد نفسك به وإلاّ فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ الرشيد الكتاب أخذه الغضب حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه ،ثم دعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب، بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه ». ثمّ شخص من فوره ففتح هرقلة والحادثة معروفة في كتب التواريخ والسير[1].

فهذا توقيع ذو طابع سياسي حربي يعطي صورة عن جيش الرشيد القوي، كان بمثابة رسالة قصدت إلى نقفور من أقرب طريق فصب عليه الحمم وأهوال العذاب والنقم. وقد اتسّم بمنتهى الإيجاز، فكان خاليا من الزخارف بعيدا عن الزينة يمثل مقدمة الكتيبة أو قطعة الجيش.

ففي قوله « والجواب ما تراه لا ما تسمعه » يتوعده بجيش عرمرم لأنّ هذا المقام لو كان فيه زينة لفظ وزخارف قول لقلت قيمة الجيش وقائده في نظر الأعداء.

كما أن السياق يثبت القوة في قلوب أبناء الدولة المسلمة التي ترى في هذا الأسلوب قوة خليفتها وجدّه وشجاعته وحزمه، وبذلك تزداد ثقة الجيش[2].

مصادر التوقيعات: برغم أهمية هذا الفن مبنى ومعني وطرافته وتميزه لم يحظ بعناية الدارسين (قديما وحديثا) بخلاف سائر فنون النثر الأخرى وإن تعددت مصادره

1 – ابن كثير – البداية والنهاية – 209/10.

2 – مصطفى الشكعة – الأدب في موكب الحضارة، ، الدار المصرية، ط3، ص 414.

وتنوعت . ولعل أهم مصدر عني بتدوينه كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه (246-327هـ) الذي أورد له نماذج من مختلف مراحل التاريخ الإسلامي. ويعد كتاب الوزراء والكتاب للجهشاري (ت331هـ) من بين أهم المصادر كونه يختص بالكتاب وقد ارتبط التوقيع بفن الترسل ، وللثعالبي عناية خاصة بهذا الضرب من النثر توزعت على مؤلفاته وفي مقدمتها كتابه "خاص الخاص" ومن المصادر الحديثة الجامعة للتوقيعات كتاب "جمهرة رسائل العرب "لأحمد زكي صفوت (بأجزائه الأربع).

3 - فن المناظرة :

المناظرة لغة : من النظير وهو الشبيه أو من النظر بالبصيرة أو بالبصر[1].

تحدثت المعاجم اللغوية عن معنى المناظرة ومما جاء في لسان العرب : « والمناظرة أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معًا كيف تأتيانه والتناظر التراوض في الأمر وناظره من المناظرة ... ».

وجاء في المصباح المنير: « ناظره مناظرة بمعنى جادله مجادلة » وفي المعجم الوسيط « ناظر فلانا باحثه وباراه في المحاجة وتناظر القوم في الأمر تجادلوا وتراضوا والمناظر المجادل المحاج »[2].

اصطلاحا : هي حوار ومناقشة أو محاضرة يشترك فيها اثنان أو أكثر بحيث يتبنى كل واحد رأيا مخالفا يحاول أن يعرضه مع براهينه تأييدًا لرؤيته ودحضًا لرأي خصمه، والفائز من المتناظرين هو صاحب البراهين الدامغة والأسلوب الرشيق والبراعة في الحديث.

وعليه فالمناظرة محاورة بين فريقين حول موضوع محدد لكل منهما وجهة نظر فيه تخالف وجهة نظر الآخر، مع الرغبة الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره. وكثيرا ما إذا ذكرت المناظرة ذكرت السفسطة ،غير أن المعاجم اللغوية القديمة لم تشر إليها لأنها كلمة مأخوذة من اليونانية وقد أشار إليها المعجم الوسيط فقال :

---

1 - محمد التونجي - المعجم المفصل في الأدب - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1 - 1993 - 868/2

2 - تنظر المعاجم : - لسان العرب - المصباح المنير - المعجم الوسيط - الصحاح ... مادة "نظر".

سفسط خالط وأتى بحكمة مضللة وعرفها بأنّها قياس مركب من الوهميات والغرض منها إفحام الخصم وإسكاته[1].

- **أركان المناظرة وآدابها وشروطها** :

أ – **أركانها** : للمناظرة ركنان أساسيان هما : موضوع تجري حوله المناظرة وفريقان يتحاوران حول موضوع المناظرة أحدهما مدع أو ناقل للخبر والآخر معترض عليه.

ب – **آداب المتناظرين**[2] :

محافظة على سلامة المناظرة وتحقيقا للغرض منها وضع العلماء جملة من الآداب ألزموا المتناظرين بها أهمها :

1. أن يجتنب المناظر مجادلة ذي هيبة يخشاه لئلا يؤثر ذلك عليه فيضعفه عن القيام بحججه كما ينبغي.
2. ألا يظن المناظر خصمه حقيرًا ضعيفا قليل الشأن فيقلل من اهتمامه، ويمكن خصمه الضعيف منه.
3. ألا يظن خصمه أقوى منه بكثير، حتى لا يتخاذل ويضعف عن تقديم حجته على الوجه المطلوب.
4. ألا يكون في حالة قلق نفسي واضطراب أو في حالة تفسد عليه مزاجه الفكري والنفسي.
5. أن يتقابل المتناظران في المجلس ويبهر أحدهما الآخر إن أمكن ويكونا متماثلين أو متقاربين علمًا ومقدارًا.
6. ألا يتسرع المتناظر قصد إسكات خصمه في زمن يسير لأنّ ذلك يفسد عليه رويته الفكرية ويبعده عن المنطق السديد والتفكير في الوصول إلى الحق، ويستنفد طاقته ومعارفه...
7. أن يقصد كل منهما المساهمة في إظهار الحق ولو على يد خصمه.

---

1 – عبد الرحمن الميداني – ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة – ط5 – 1998 – دار القلم – دمشق – 371.

2 – المرجع نفسه– 372.

8. أن يتجنبا الهزء والسخرية و احتقار الآخر وازدراءه أو وسمه بالجهل أو قلة الفهم كالتبسم والضحك.

9. أن يحترز المناظر عن الاختصار المخل في الكلام وعن الإطالة المملة بلا فائدة ترجى.

10. أن يتجنب المناظر الألفاظ المجملة التي تحتمل عدة معانٍ من غير ترجيح.

11. أن يأتي كل من المتناظرين بالكلام الملائم للموضوع فلا يخرج عن صلب الموضوع.

12. أن لا يتعرض أحدهما لكلام خصمه قبل أن يفهم مراده تمامًا.

13. أن ينتظر كل واحد منهما صاحبه حتى يفرغ من كلامه ولا يقطعه عليه من قبل أن يُتمه.

14. أن يقبل كل منهما الحق الذي هداه إليه مناظره.

ج – **شروطها**[1] : للمناظرة شروط أهمها :

1. أن تجمع بين خصمين متضادين أو متباينين في صفاتهما بحيث تظهر خواصهما.

2. أن يأتي كل من الخصمين في نصرته لنفسه وتفنيد مزاعم خصمه بأدلة من شأنها أن ترفع قدره وتحط من مقام الخصم بحيث يميل بالسامع إليه.

3. هدفها هو إظهار الحقيقة فيجب العمل على تجنب الجدل العقيم .

4. لا يمكن الوصول إلى هدف المناظرات الذي يجب أن تتقيد به إلا عن طريق النظر والبحث عن الحقيقة بوساطة البصيرة التي هي للقلب بمنزلة البصر للعين .

5. أن تصاغ المعاني والمراجعات صوغًا حسنًا وترتب بإحكام يزيد في نشاط السامع وينمي فيه الرّغبة في حل المشكل.

6. أن يكون المتناظران على معرفة بالموضوع الذي يتنازعان فيه، فإذا تكلم أحدهما لم يخبط خبط عشواء ولم يناقش في البديهيات بغير علم وإذا ألزم بالحق التزم به دون مكابرة.

7. أن يكون الموضوع مما يجوز أن تجري فيه المناظرة ضمن قواعد هذا الفن وضوابطه والمفردات والبديهيات الجلية.

---

1 – المرجع نفسه – 372.

8. أن يُجري المتناظران مناظرتهما على عرف واحد، فإذا كان كلام المعلل جاريًا على عرف الفقهاء فليس للسائل أن يعترض عليه استثناءً إلى عرف النحاة أو الفلاسفة [1].

هذا ولا تجوز في المناظرة المجادلة ولا المعاندة لما فيهما من مجانبة للصواب، إذ الأصل في المناظرة الحوار الهادئ البناء، العقلاني الذي يقبل بالنتائج دون مكابرة.

فلا بد في المناظرة من أن تنتهي بعجز أحد المتناظرين عن دفع دليل الآخر فإذا كان العاجز هو السائل سُمي مُلزمًا وسمي عجزه إلزامًا، وإذا كان العاجز هو المعلل سمي مفحمًا وسمي إفحامًا[2].

- نشأة المناظرات:

في العصر الجاهلي لم تعرف المناظرات بهذا المفهوم ولا تعليل لذلك إلا أن العرب كانوا أمه أمية في مجموعهم فلم يعرفوا المحاجة والاستدلال ولم تكن لهم نظريات فلسفية فيلجأون إلى تقريرها ولم تثر بينهم مناقشات علمية أو أدبية عميقة يحاول كل طرف أن يثبت رأيه فيها.

ويمكن القول بأن المناظرات ظهرت بظهور الإسلام وما رافقه من دعوة الناس إلى ترك عبادة الأصنام إلى عبادة الله فكان من الطبيعي أن تظهر المناقشات والمناظرات بين الطرفين. وفي عهد بني أمية الذي يعد عهد ازدهار للمناظرات السياسية والدينية حيث انتشرت في هذا العصر مناظرات بين المتكلمين خاصة في عهد عمر بن عبد العزيز الذي فتح صدره للمتناظرين يستمع إلى المناظرات ويشارك فيها. وفي العصر العباسي حيث عرف العرب منذ مطلع هذا العصر مبدأ المناظرة وكان أشبه بالمحاورة يُجريها لفيف من العلماء بحضور الخليفة أو الأمير غالبًا بناءً على رغبته حول بعض القضايا في الدين أو الفكر أو التاريخ، وأصبحت المناظرات في هذا العصر هواية يزاولها المتكلمون وغير المتكلمين.

وفي العصر العباسي الأوّل دخلت المناظرات عهدًا جديدا فقد اخترعت مناظرات خيالية على ألسنة شخصيات خيالية قد تكون بشرية مثل مناظرة صاحب

---

1 - أحمد الهاشمي - جواهر الأدبي أدبيات وإنشاء لغة العرب - دار الفكر، بيروت - لبنان - 224/1.

2 - عبد الرحمن الميداني - ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال - 454-455.

الكلب وصاحب الديك (النظام ومعبد) وقد أوردها الجاحظ في كتاب الحيوان (الجزأين الأوّل والثاني) أو مخترعة كالمناظرة بين الفصول.

كان الخلفاء العباسيون في مجموعهم يشجعون المناظرات ويقبلون على المتناظرين ويستمعون إليهم ويشجعون أحيانًا رأيًا معينًا من آرائهم.

جاء المهدي فحارب الزنادقة وتتبعهم وفتك بهم، وكما حاربهم بالسيف حاربهم باللسان وأغرى المتكلمين بمناظرتهم. وكان المأمون يجعل من مجلسه ندوة علمية يتناظر فيها العلماء والفقهاء والمتكلمون وكان يناظر معارضيه[1]. ولم يكن المتوكل ميالاً إلى هذا الجدل، فقد أمر بتركه ونهى عن الجدل في القرآن وكان ساخطًا على المعتزلة لما رأى من الوزراء الذين يؤمنون بمذهبهم كابن أبي دؤاد من ظلم وقسوة فعزل ابن أبي دؤاد وولى مكانه محمد بن يعقوب ثم أخرج الإمام أحمد ابن حنبل من سجنه وأفسح المجال أمام علماء الحديث وأهل السنة، وفي عهده لم تتوقف المناظرات بل توقف تأييد الخليفة لها فجرت مناظرات فقهية، ومع استمرارها كثر تأليف الكتب في الطعن على مبدأ معين أو في الرد على طعن الآخرين وكان للجاحظ في هذا المجال اليد الأولى حيث كان معتزليًا وألف في ذلك كثيرًا من الكتب والرسائل.

كما قامت مناظرات في خراسان، يذكر أن عبد القاهر ناظر ابن مهاجر في مجلس ناصر الدولة محمد بن سيمجور، ولم تكن المناظرات العقائدية هي المناظرات الوحيدة في هذا العصر حيث كانت هناك مناظرات نحوية بين المبرد والكسائي... و فقهية بين الشافعية وأنصار المذهب الظاهري ، وكانت هناك مناظرات فلسفية كتلك المناظرة التي جرت بين محمد بن زكريا الرازي وأبي حاتم الرازي.

وهناك مناظرات شهيرة جرت بين السيرافي النحوي ويحي بن يونس الذي يدافع عن المنطق[2].

- **عوامل ازدهار المناظرات**[3] : تظافرت عوامل عدة وساهمت في نشاط حركة النقاش والجدل والتحاور والتناظر، نجملها في الآتي:

---

1 - أحمد أمين مصطفى - المناظرات في الأدب العربي إلى نهاية القرن الرابع - دار النمو - 31-35.

2 - المرجع نفسه - 42.

3 - ينظر : حسين الصديق - المناظرة في الأدب العربي الإسلامي - الشركة المصرية العالمي - ط1 - 102 وما بعدها.

1. القرآن الكريم فقد حوى مناظرات موجزة بين بعض الأنبياء والجاحدين من قومهم ثم إن القرآن دعا إلى النظر والتأمل والاستنتاج وترك بعض المسائل التي تهم المجتمعات بحيث يتعرفون فيها بأنفسهم على ما يحقق الخير وكان كل ذلك نواة للتفكير واختلاف الآراء وظهور المناقشات والمناظرات.

2. كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يستشير أصحابه ويستمع إلى أرائهم ، وأباح لهم الاجتهاد إن لم يكن هناك نص من الكتاب أو السنة وقد جرت مناظرات بينه – عليه السلام – وبين المشركين[1].

3. تطور الأحداث وتطور المجتمعات :لابد من ظهور أحداث جديدة واحتياجات جديدة للمجتمعات وقد بدأ ذلك بعد وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – حيث اختلف الأنصار والمهاجرون حول الخلافة وتناظروا ثم حدث اختلاف في وجهات النظر بين أبي بكر وعمر وبين سائر الصحابة ثم ظهرت المذاهب الفقهية وأهل الحديث وأهل الرأي ...

4. الخلافات السياسية: وقد اتسعت منذ خلافة عثمان وعلي، فالدولة الأموية، حيث تناظرت الأحزاب حول الأحق بالخلافة. فلما جاء العباسيون دخلوا في مناظرات مع العلويين حول الخلافة والإمامة والوصية ...

5. الخلافات العقائدية: كان المسلمون أولاً يأخذون بظاهر النص ويفوضون ما خفي علمه إلى الله تعالى ثم بدأ الشيعة و الخوارج يُثيرون الخلافات العقائدية واتسعت شقة الخلافات وظهر الحسن البصري وتحدث في القدر، ثم ظهرت فرقة المعتزلة وخاضوا في مناظرات عديدة ضد الفرق المخالفة لهم.

6. الشعوبية : فقد قامت الحركة على فكرة المفاضلة بين العجم والعرب وعابت على العرب كل مظاهر حياتهم ورد العرب عليهم وألفت كتب في هذا المجال. كما كانت لعلماء المسلمين مناظرات مع أصحاب الديانات الأخرى (النصرانية واليهودية والمعتقدات الوثنية ...)

7. تشجيع الخلفاء ورجال الدولة للمناظرات وإطلاق الحريات للمتناظرين : لم يكن من الممكن ازدهار المناظرات إلا في جو من الحرية وكثير من رجالات الدولة كانوا يحبون

---

1 – أحمد أمين مصطفى – المناظرات في الأدب العربي – 42.

البحث والمناظرة ويعقدون المجالس ويسألون العلماء ويطلبون منهم المناظرة وكانوا يشجعون المتناظرين ويمنحونهم المكافآت السخية وقد يشترك الخليفة نفسه في هذه المناظرات.

8. الرغبة في إظهار المقدرة: فقد كان بعض المتكلمين أو الأدباء يحاولون إظهار[1] براعتهم فيمدحون الشيء ويذمونه ، فالجاحظ اشتهر بالكتابة في الشيء وضده وهو ما يعرف "بالمفارقة "، فهو مثلا يمدح النبيذ ثم يذمه، ويمدح الكتاب في رسالة ثم يذمهم في أخرى، وكثيرا ما كتب في الشيء ونقيضه.

9. نظرة المجتمع إلى لمتكلمين، فقد كان المجتمع ينظر إليهم نظرة إكبار باعتبارهم المناظرين عن الدين والمبطلين لافتراءات أعدائه وكانوا يستمعون إلى هذه المناظرات في إعجاب[2].

- موضوعاتها :

أ - المناظرات الدينية والسياسية :

هناك نظريات عديدة جرت حولها المناظرات يصعب على الباحث أن يضعها في باب الدين أو السياسية وأهم هذه النظريات نظرية الخلافة وهي أوّل نظرية دينية سياسية، فقد اشتهرت المناظرات حول الخلافة أو الحكم ولم تتوقف في أي وقت من الأوقات، كما دارت مناظرات حول التحكيم (معركة صفين) ، وكان هناك صراع آخر دارت حوله المناظرات ونعني به الصراع بين الشعوبيين والعرب ففي ظلال الدولة العباسية صار للعجم عامة و للفرس بصورة خاصة مكانة عالية واحتلوا في الدولة مناصب سامية وبدأوا يتعالون على العرب ويحتقرونهم ورد عليهم العرب افتراءاتهم. وهناك المناظرات الدينية البحتة التي كانت تنشط بين مختلف المذاهب الكلامية والعقائد، سواء فيما بين المسلمين أنفسهم أم بينهم وأصحاب سائر المعتقدات.

- المناظرات الأدبية :

كانت هناك مناظرات أدبية تدور في مجالس الأمراء والخلفاء ولعل أشهرها مناظرتان حدثتا في القرن الرابع الهجري أما إحداهما فكانت بين الحاتمى والمتنبي وأما الأخرى فكانت بين بديع الزمان الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي. ومنها المناظرات

---

1 - المرجع نفسه - 33.

2 - المرجع نفسه - 37.

الخيالية كمناظرة ابن حبيب الحلبي بين فصول السنة والجاحظ بين الخريف والشتاء وابن الوردي بين السيف والقلم ...

- المناظرات النحوية :

كان الخليل بن أحمد أول أستاذ ذاعت شهرته في علم النحو وعلى يده تتلمذ سيبويه وبدأت المناظرات النحوية في القرن الثاني للهجرة وربما أشهر المناظرات تلك التي جمعت بين سيبويه والكسائي، ومما يروى عن هذه المناظرات أن الخلفاء كانوا يمنحون العلماء المتفوقين فيها مكافآت سخية وكان المتناظرون على جانب كبير من الدراية بآداب المجالس وما ينبغي أن يراعى في حضرة الخاصة والعامة [1].

وعموما فقد عبرت المناظرات بمختلف موضوعاتها و أساليبها عن مستوى النضج الفكري والعلمي الذي بلغه العقل العربي، وربما عددناها إرهاصا لفن القص الذي عرف العصر العباسي صورا مختلفة لبواكيره.

1 - المرجع نفسه - 108-170.

قائمة المصادر والمراجع :

- ابن الأثير - الكامل في التاريخ - دار المعارف - د.ت و طبعة دار الكتب العلمية- بيروت

-أحلام الزعيم - قراءات في الأدب العباسي - الحركة الشعرية - مطبعة الاتحاد - جامعة دمشق - 1991-1411.

- أحمد أمين مصطفى - المناظرات في الأدب العربي إلى نهاية القرن الرابع - دار النمو .

- أحمد أمين مصطفى - فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي.

-أحمد بن فارس، مقاييس اللغة ، تح عبد السلام هارون، دار الجيل (بيروت)، (د .ط)، (د. ت) .

- أحمد بن ناصر الدخيل، فن التوقيعات الأبية في العصر الإسلامي و الأموي والعباسي، (د.ط)، (د.ت) .

- أحمد الهاشمي - جواهر الأدبي أدبيات وإنشاء لغة العرب - دار الفكر، بيروت - لبنان .

- الأصبهاني- كتاب الأغاني- دار الثقافة-ط6- 1404-1983

-الاصطخري - المسالك والممالك- دت - دط - مكتبة المصطفى الإلكترونية .

- إكرام فاعور - مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن زيد - دار اقرأ - بيروت - لبنان -

- أمين يوسف عودة — تجليات الشعر الصوفي قراءة في الأحوال والمقامات- المؤسسة العربية للدراسات والنشر — بيروت-الأردن ط1 — 2001

- إيليا الحاوي - تطور فن الهجاء وتطوره عند العرب- دار الثقافة- لبنان

- إيليا الحاوي- تطور فن الوصف- دار الكتاب اللبناني - بيروت-ط2- 1967 .

- ابن بسام - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة- تحقيق إحسان عباس- دار الثقافة - بيروت- 1417هـ 1997.

- بشار بن برد - الديوان - شرح ترتيب - مهدي محمد ناصر الدين- دار الكتب العلمية - بيروت .

- البحتري — الديوان- تحقيق حسن كامل الصيرفي- دار المعارف- مصر 1963

- بـــديع محمـــد جمعـــة - دراســـات في الأدب المقـــارن دار النهضـــة العربيـــة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة 2 - 1980-
- بديع الزمان الهمذاني - المقامات - دار المشرق - بيروت - ط9 .
- البرقوقي - شرح ديوان المتنبي - دار الكتب العربي - بيروت - 1407-1986.
- البطليوسي، الاقتضاب، في شرح أدب الكتاب تح عبد الله أفندي البستاني، المطبعة الأردنية بيروت، (د.ط)، (1907) .
- أبو بكر الصولي- أخبار أبي تمام- تحقيق محمد عبدو عزام وآخرون- دار الآفاق الجديدة- لبنان -ط3- 1980.
- أبو بكر الصولي- أخبار البحتري - تحقيق صالح الأشتر- دار الفكر - بيروت- .1964
- أبو تمام - الديوان - شرح شاهين عطية - دار الكتب العلمية - بيروت - ط3 - 2003 — 1424 .
- الثعالبي - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - تحقيق مفيد محمد قميحة - دار الكتب العلمية- لبنان- ط1- 1403هـ -1983.
- حامـد حفـني داود - الآداب الإقليميـة في العصـر العباسـي الثـاني - ديـوان المطبوعات الجامعية - الجزائر- ط2 - 1981.
حبيب الله آموزكار، فرهنگ آموزگار، كانون معرفت، تهران، جاب سّوم.
- الحريري - شرح المقامات - تحقيق وشرح يوسف بقاعي - دار الكتاب اللباني - ط2 .
- حسن الحاج حسن - أعلام في النثر العباسي - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت - ط1 - 1413-1993.
- حسن عميد، فرهنگ فارسي عميد، چاپخانه سپهر، تهران، چاپ ششم 1364.
- حسين الصديق - المناظرة في الأدب العربي الإسلامي - الشركة المصرية العالمي - ط1
- حسين عطوان - الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول - دار الجيل - بيروت - 149-165.
- ابن خرداذبة - المسالك والممالك .
ابن خلدون، المقدمة، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، ط5 (1402هـ - 1982م).

- الخليل بن أحمد الفراهيدي، عبد الحميد الهنداوي ، باب الواو ، مادة وقع، دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان، ط1 (1424هـ-2002م) .
- خليل جفال - الشعوبية والأدب - دار النضال - بيروت - ط1 - 1986 - ص 11.
- دعبل الخزاعي - الديوان شرح ضياء حسين الأعلمي - مؤسسة النور للمطبوعات - بيروت - ط1 - 1417-1997.
- ديك الجن الحمصي - الديوان — شرح وتقديم عبد الأمير مهنا- دار الفكر اللبناني- ط1- 1990
- الرازي، مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، دار الحديث، (د .ط)، (د .ت) .
- ابن الرومي - الديوان — تحقيق كامل الكيلاني د ت .
- ابن رشيق المسيلي- العمدة في محاسن الشعر, آدابه- تحقيق محمد قرقزان- دار المعرفة- بيروت- ط1-1408-1988 .
- الزبيدي تاج العروس من جواهر القاموس, دار الفكر، ط1 (1414هـ-1994م) .
- زكي مبارك - النثر الفني في القرن الرابع - المكتبة العصرية - بيروت - 2006 - الجزء 1، 2.
- سليم مجاعص- ديك الجن الحمصي —دار أمواج —لبنان ط1-2000 .
- الشافعي- الديوان - جمع محمد عفيف زعبي، مكتبة المعرفة، الطبعة الثالثة : 1392هـ.
- شكري فيصل- أبو العتاهية أشعاره و أخباره- مطبعة جامعة دمشق- 1364هـ 1965
- شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني - دار المعارف - د.ت (ج 3-4).
- طاهر أبو فاشا - مقدمة الذين أدركتهم حرفة الأدب- دار الشروق - ط1 - 1401-1989 .
- الطبري- تاريخ الرسل والملوك- تحقيق محمد أبو الفضل أبراهيم- دار المعارف - مصر-ط2 .
- طه ندا - الأدب المقارن - دار النهضة العربية - بيروت - 1991 .

- عبد الحكيم حسان- التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى القرن الثالث الهجري- مكتبة الأنجلو المصرية — د ت.
- عبد الرحمن الميداني - ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة - دار القلم - دمشق - ط5 - 1998.
- عبد الحميد محمد جيده- الهجاء عند ابن الرومي- منشورات المكتب العالمي للطباعة والنشر- لبنان-1974 .
- أبو العتاهية - الديوان — شرح وتقديم مجيد طراد- دار الكتاب العربي- ط2- 1417-1997.
- علي جواد الطاهر - الشعر العربي في العراق وبلاد العجم - دار الرائد العربي - بيروت - ط2 - 1985 - ص 439.
- علي جواد الطاهر - مقدمة في النقد الأدبي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط2 - 1983.
- عبد المالك مُرتاض - فن المقامات الأدب العربي - الطبعة الثانية - الدار التونسية - للنشر - 1988.
- عبد الله التطاوي - مستويات الحوار في فنون النثر العباسي -دار غريب للطباعة والنشر - القاهرة
- ابن العماد الحنبلي- شذرات الذهب في أخبار من ذهب-دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-ط1-بيروت-1979
- عمر الدقاق - أعلام النثر الفني في العصر العباسي - دار القلم العربي - ط1 - 2004.
- عمر فروخ: تاريخ الأدب الغربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1401هـ-1981م
- وموسى - الأدب القصصي عند العرب - دار الكتاب اللبناني - ط5 - 1983.
- القاضي الجرجاني- الوساطة بين المتنبي و خصومه - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي- المكتبة العصرية- بيروت-ط1- 1427- 2006 .
- ابن قتيبة — أدب الكاتب - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1408هـ-1988م.

- القلقشندي - صبح الأعشى في صناعة الإنشا - المطبعة الأميرية - القاهرة 1332هـ- 1914م- وطبعة دار الكتب المصرية، القاهره، (د.ط)، (1340 هـ - 1992) .

- الكلاعي — إحكام صنعة الكلام- تح ،محمد رضوان الداية ،دار الثقافة بيروت لبنان ،(د،ط) ،(د،ت)، .

- مازن المبارك - مجتمع الهمذاني - من خلال مقاماته - دار الفكر - ط2 - 1401-1981.

- المتنبي- الديوان- شرح البرقوقي- دار الكتاب العربي- 1407- 1986

- مصطفى الشكعة - الأدب في موكب الحضارة، ، الدار المصرية، ط3.

- محمد التونجي - المعجم المفصل في الأدب - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1 - 1993 - 868/2

- محمد الراشد، نظرية الحب والاتحاد في التصوف الإسلامي من الحب الإلهي إلى دوامات الاتحاد المستحيل، الأوائل للنشر، دمشق، ط1، 2003 .

المرزباني - الموشح: مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر- تحقيق محمد البجاوي- دار النهضة-مصر- 1965

- ابن المعتز - الديوان - تحقيق ودراسة محمد بديع شريف- دار المعارف - مصر

- ابن المعتز - طبقات الشعراء - تحقيق عبد الستار أحمد فراج- دار المعارف- مصر

- ابن منظور، لسان العرب، تح أحمد حيدر، باب الواو، مادة وقع، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 (2005) .

- نايف محمود معروف- سلم الخاسر شاعر الخلفاء والأمراء في العصر العباسي- دار الفكر العربي- بيروت ط1-2001

- أبو نواس - الديوان- تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط1 - 1423-2003 .

النويري - نهاية الأرب - دار الكتب المصرية - القاهرة-القلقشندي - صبح الأعشى في صناعة الإنشا - المطبعة الأميرية - القاهرة 1332هـ- 1914-م

- ياقوت الحموي- معجم البلدان .

- ياقوت الحموي - معجم الأدباء - تحقيق إحسان عباس- دار الغرب الإسلامي
- ط1- 1993

فهرس الموضوعات